
ديوان
طلائع
بن رزيك
مكتبة
الاسكندرية
Bibliotheca Alexandrina
0139919



الدكتور أحمد أحمد بدوى

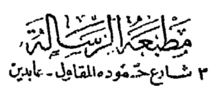
أستاذ النقد الأدبى المساعد

بكلية دار العلوم - جامعة القاهرة

ملتزم الطبع والنشر

مكتبة نهضة مصر بالفجالة

١٨ شارع كامل صدقى


مطبعة الرسالة
٣ شارع حمودة المقاول - عابدين

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

- ١ -

استيقظ القصر الفاطمىّ صبيحة اليوم السّادس عشر من المحرّم ، سنة تسع وأربعين وخمسمائة — يبحث عن الخليفة الظّافر بأمر الله ، فى مخدعه ، وعند الحرم ، وفى حجرة العرش ، فلم يعثر له على أثر ، وعندما أقبل وزيره : عبّاس الصنهاجىّ ، كعادته فى الصّباح ، مع ألف رجل يحملون السّلاح ، طلب الإذن فى أن يقابل الخليفة ، كى يطلعه على أمور الدّولة ، وحين أخبر بغيبته أظهر الغضب ، وأمر فأحضر أخوا الخليفة الغائب ، فقتلهما ، زاعما أنّهما كانا ينفسان على أخيهما الخلافة ، وأنهما قتلاه ، ومضى إلى طفل للظّافر ذى خمس سنين ، نادى به خليفة ، ولقّبه الفائز بنصر الله ، وأخذ عبّاس ما أراد من الأموال والجواهر والذّخائر النّفيسة ، ولم يترك إلا ما لا خير فيه . .

لم يستسغ أهل القصر ما حدّثهم به الوزير عبّاس ، ولم يرتضه الشّعب ، ولم يلبث النّاس أن وقعوا على الخبر الصّحيح ، وعلموا أنّ القاتل للخليفة إنّما هو نصر بن عبّاس ؛ لأمور مريبة كانت بينهما ، فاستفظعوا أمر هذه الجريمة الشّنيعة ، وثارت القاهرة ، وانتشر القتال فى الطرقات ، وأسرع أتباع عبّاس بالتّخلّى عنه ، وأخذ النّاس يسمعونه المكروه فى الشّوارع ، وألقى عليه فى يوم

قدر مملوءة ماء حارًّا ، وفى آخر قذف بهاون من النّحاس ، و بعثوا إلى طلائع بن رزيك أحد ولاة الصعيد ، يستنجدون به على عبّاس وابنه نصر ، وأرسلت إليه أخوات الظّافر بشعورهن فى كتب كلّها سواد ، وكتب إليه فيمن كتب القاضى الجليس بن الحباب ، قصيدة منها :

دهتنى عن نظم القريض عوادى ... وشفّ فؤادى شجوه المتمادى
وأرّق عينى ، والعيونُ هواجع ... همومٌ أقضّت مضجعى ووسادى
بمصرع أبناء الوصىّ ، وعترة النّـــــبىّ ، وآل الذّاريات وصاد
فأين بنو رزّيك عنهم ونصرهم ... ومالهم من منعـــــة وذياد
أولئك أنصار الهدى و بنو الرّدى ... وسم العدا من حاضرين و باد
لقد هدّ ركن الدّين ليلة قتله ... بخير دليـــــل للنجاة وهاد
تدارك من الإيمان قبل دثوره ... حشاشة نفس آذنت بنفـاد
فلو عاينت عيناك بالقصر يومهم ... ومصرعهم لم تـكتحل برقاد

فلما بلغ ذلك طلائع بن رزيك حشد جموعه ، وأقبل على القاهرة ، لابسا السّواد ، حاملا شعور حرم الخليفة على الرّماح ، ودخل قصر الوزارة ، فى التّاسع من ربيع الأوّل ، وتلقّب بالملك الصّالح ، وأخرج جسد الظّافر من البئر التى قد رمى فيها بعد قتله ، وجعله فى تابوت ، ومشى بين يديه إلى مرقده الأخير ، حافيا مكشوف الرأس ، وفعل النّاس مثل ذلك ، وكثر فى هذا اليوم الضجيج والبـكاء والعويل .

وأمّا عبّاس وابنه ، فعندما قرب طلائع من القاهرة فرّا ، ومعهما ما يملكانه مما يستطيعان حمله طالبين الشّرق ، فاعترضهما الفرنج ، فقاتلا حتى قتل عبّاس ، وأخذت أمواله ، وأسر ولده نصر ، وأرسل إلى مصر فى قفص من حديد ، وخلعت يده ، وضرب ضربا مهلكا ، وقرض جسمه بالمقاريض ، ثمّ صلب على باب زويلة حيّا ، حتّى مات ، وبقى مصلوبا إلى يوم عاشوراء سنة ٥٥١ هـ ، ثم أنزل ، وأحرقت عظامه .

— ٢ —

وُلِّيَ طلائع الوزارة للفائز ، والسّجلّ الّذى أنشأه له كاتب ديوان الإنشاء : الموفّق يوسف بن الخلاّل — يسجّل ما أدّاه طلائع : من إنقاذ الخلافة ، والإسراع إلى نجدتها ، إذ يقول : « وإنّ أمير المؤمنين ... يقدّر نعم الله حقّ قدرها ، ويواصل العكوف على الاعتداد بها ونشرها ، ويبالغ فى شكرها قولا وعملا ونيّة ، ويجهد نفسه فى حمدها اجتهادا يرجو به درك الأمنيّة ، ويتحقّق أنّ أسماها محلاّ وقدرا ، وأولاها على كافة البريّة ثناء وشكرا ، وأعلاها قيمة ، وأعمّها نفعا وأعذبها ديمة ، وأجمعها لضروب الجذل والاستبشار ، وأجدرها بأن تؤثّر فى الأمم أحسن الآثار ، وأوسعها فى مضمار الاعتداد مجالا ، وأعظمها على الرئيس والمرءوس نفعا وجمالا — النعمة بك أيّها السّيّد الأجل ، إذ كنت نجدة الله المذخورة لأمنائه على خلقــه ، والقائم دون البريّة بما افترضه عليهم من مظاهرة أمير المؤمنين والأخذ له بحقّه ، واللّطف الذى كان بين الإمامة وبين إعدامها حاجزا ، والنّصر الذى أصبح أمير المؤمنين بعون الله به فائزا » .

وتمضى فى قراءة السّجلّ ، فترى فيه تفويض كلّ أمر إلى الوزير ، فضلا عن تنصيبه كفيلا للخلافة ، يقول السّجلّ : «قلّدك من وزارته ، وفوض إليك تدبير مملكته وكفالته ، وجعل لك إمارة جيوشه الميامين ، وكفالة قضاة المسلمين ، وهداية دعاة المؤمنين ، وتدبير ما هو مردود إليهم من الصّلاة والخطابة وإرشاد الأولياء المستجيبين ، والنّظر فى كل ما أغدقه الله من أمور أوليائه أجمعين ، وجنوده وعساكره المؤيّدين ، وكافة رعاياه بالحضرة ، وجميع أعمال المملكة دانيها وقاصيها ، وسائر أحوال الدّولة باديها وخافيها ، . . . وردّ إليك تدبير ما وراء سريرخلافته ، وسياسة ما تحتوى عليه أقطار مملكته ، وألقى إليك مقاليد البسط والقبض ، والرّفع والخفض ، والإبرام والنقض ، والقطع والوصل ، والولاية والعزل ، والتّصرّف والصّرف ، والإمضاء والوقف ، والنضّ والتّنبيه ، والإخمال والتّنويه ، وجميع ما يقتضيه صواب التّدبير من الإنعام والإرغام ، وما توجيه أحكام السّياسة من الإباء والإتمام ، . . . » .

وقد سار طلائع بهذا التّفويض ، فلم يدع للخليفة الفائز أمرا ، وأى أمر لصبي لا يعرف من شئون السّياسة شيئا ، ويصاب بالصّرع بين الحين والحين ؟!

وصفت الأمور لطلائع ، وكان رجلا حازما قويّا بمواهبه الشّخصيّة ، عنى بعد دفن الظافر بإعادة النظام إلى نصابه ، ومعاقبة من كان سبب الفوضى بالقاهرة ، وثبّت سلطان القانون .

غير أنّه إذا كان قد نجح فى توطيد النّظام والأمن فى مصر ، فإنّه لم ينجح فى أن يعقد صلة بين مصر ونور الدين محمود حاكم الشّام ، فإن الحذر المطلق

الذى كان يملأ نفس نور الدين ، وأنّه رجل مسلم غيور وقف نفسه على أن يحارب حربا مقدّسه ضدّ الفرنج ، كل ذلك حال بينه و بين أن يعقد صلة مع خلفاء مصر ، وعقائدُهم فى نظره باطلة بدعيّة . وكان الصالح طلائع مشتاقا إلى أن يعقد الصّلة مع نور الدين ، فعندما أرسل حملة عسكرية فى البّر ، وأسطولا كبيرا فى البحر ، لغزو غزّة وعسقلان ، وأثخن جنده فى العدوّ سنة ٥٥٣ هـ ، وعاد سالما ظافرا — انتهز طلائع هذه الفرصة ، وأرسل إلى الشّام عدة قصائد ، يمّجد فيها هذا الظّفر ، و يحثّ نور الدين على غزو الفرنج ، ولـكن هذه القصائد لم تجد أذنا مصغية من نور الدين ، بل أرسل ابن رزّيك بعثة رسمية إلى دمشق مع هدايا لطيفة ، وسبعين ألف دينار تنفق فى الحرب المقدّسة ، ولـكن ضاع كلّ ذلك سدى ، وأخفق ابن رزّيك فى أن يعقد محالفة للعمل المشترك ضدّ الصّليبيّين ، مع شدّة رغبته فى التّضافر والعمل على إخراجهم . وظلّ طول حياته يتحفّز لهذا الهدف ، و يتألّم لأنّه لم يتحقّق ، ولو أنّ مصر كانت قوّية فى ذلك الحين ، أو كانت عقائدها كعقائد دمشق ، لـكان اتّحاد مصر والشّام جديرا بأن يقذف الصّليبيّين إلى البحر .

ولقد ثقلت سياسة طلائع الاستبدادية على عمّة الفائز ، وقد كان الخليفة فى تدبيرها ، فشرعت فى العمل على قتل طلائع ، ودبّرت لذلك مؤامرة انتهت بقتل عمّة الفائز الـكبرى ، ونقل كفالة الخليفة إلى عمّته الصّغرى ، التى حاولت هى الأخرى التّخلّص من الوزير وقتله ، غير أنّ المؤامرة التى دبّرت لاغتياله لم تنجح إلاّ فى إصابته بجرح ، وظلّ وزيرا حتّى مات الفائز فى رجب سنة ٥٥٥ هـ ، وهو ابن إحدى عشرة سنة وشهور .

ولم يختر طلائع رجلا ناضجا من الأسرة المالكة ، بل اختار لحمل هذا العبء طفلا ، وبهذا تمّ الأمر للصالح ، وصار صاحب السّلطان المطلق فى مصر ، ولكن أسرة الخليفة دبّرت له مكيدة راح ضحيّتها ، فمات جريحا بعد عام من ولاية العاضد ، فى رجب سنة ٥٥٦ هـ .

وكان مما ندم عليه ، وهو يجود بأنفاسه الأخيرة ، أنّه لم يوجّه كل جهوده لإخراج الصّليبيّين من الشّام ، وقد حزن النّاس عليه يوم مات ؛ لما كان منه : من حفظ النّظام ، واستتباب الأمن .

— ٣ —

قال عمارة اليمنى عنه : « ولم تكن مجالس أنسه تنقطع إلا بالمذاكرة فى أنواع من العلوم الشّرعيّة والأدبيّة ، وفى مذاكرة وقائع الحروب ، مع أمراء دولته . . . وكان مرتاضا ، قد شمّ أطراف المعارف ، وتميّز عن أجلاف الملوك الّذين ليس عندهم إلاّ خشونة مجردة ، وكان شاعرا ، يحبّ الأدب وأهله ، ويكرم جليسه ، ويبسط أنيسه ، وكان كرمه أقرب إلى الجزيل من الهزيل » .

وتوثقت الصلة بين عمارة والوزير ، منذ قدم عمارة إلى مصر ، وأنشد الخليفة الفائز ووزيره تلك القصيدة البارعة التى أوّلها :

الحمد للعيس بعد العزم والهمم حمدا يقوم بما أولت : من النّعم

وفيها يقول :

أقسمت بالفائز المعصوم معتقدا فوز النّجاة وأجر البرّ فى القسم
لقد حمى الدّين والدّنيا وأهلهما وزيره الصّالح الفرّاج للغمم
اللابس الفخر لم تنسج غلائله إلا يد الصنعين : السيف والقلم
وجوده أوجد الأيّام ما اقترحت وجُودُه أعدم الشّاكين للعدم
أرى مقاما عظيم الشأن ، أوهمنى فى يقظتى أنّها من جملة الحلم
ترى الوزارة فيه وهى باذلةٌ عند الخلافة نصحا غير متّهم
عواطفٌ علّمتنا أنّ بينهما قرابة من جميل الرأى لا الرحم
خليفة ووزير مدّ عدلهما ظلاً على مفرق الإسلام والأمم

وكان الصالح يستعيد تلك القصيدة وهى تنشد مراراً ، وكافأ الشاعر عليها بخمسمائة دينار ، ولم تنقطع الصّلة بين الشاعر والوزير ، يجيد هذا فى المدح والإطراء ، وذاك يغدق عليه ، ويوالى برّه وإنعامه ، ولم يمنع اختلاف المذهب من وثاقة الصلة بينهما ، فقد كان عمارة سُنّىّ المذهب ، أما طلائع فكان شيعيّا متعصّباً للتشيّع ، قال عمارة : « وكانت تجرى بحضرته مسائل ومذاكرات ، ويأمرنى بالخوض مع الجماعة فيها ، وأنا بمعزل عن ذلك ، لا أنطق بحرف واحد ، حتى جرى من بعض الأمراء الحاضرين فى مجلس السَّمَر من ذكر السّلف ما اعتمدت عند ذكره وسماعه قول الله عزّ وجلّ : « فلا تقعد معهم ، حتى يخوضوا فى حديث غيره » ، ونهضتُ فخرجت ، فأدركنى الغلمان ، فقلت : حصاة يعتادنى وجعها ؛ فتركونى ، وانقطعت فى منزلى أياما ثلاثة ، ورسوله فى كل

يوم والطبيب معه ، ثم ركبت بالنهار ، فوجدته فى البستان المعروف بالمختص ، فى خلوة من الجلساء ، فاستوحش من غيبتى ، وقال : خيرا . فقلت : إنى لم يكن بى وجع ، وإنما كرهت ما جرى فى حق السلف ، وأنا حاضر ؛ فإن أمر السلطان بقطع ذلك حضرت ، وإلاّ فلا ، وكان لى فى الأرض سعة ، وفى الملوك كثرة ؛ فعجب من هذا ، وقال : سألتك بالله ، ما الذى تعتقد فى أبى بكر وعمر ؟ قلت : أعتقد أنه لولاهما لم يبق الإسلام علينا ولا عليكم ، وأنه ما من مسلم إلا ومحبّتهما واجبة عليه ؛ ثم قرأت قول الله تعالى : « ومن يرغب عن ملة إبراهيم إلا من سفه نفسه » ؛ فضحك ، وكان مرتاضا حصيفا ، قد لقى فى ولايته فقهاء السنة ، وسمع كلامهم » .

وحاول طلائع أن يغرى عمارة بالدّخول فى مذهب الشيعة ، ولكن الشاعر أبى . أرسل إليه يوما رقعة فيها أبيات بخطه ، ومعها ثلاثة أكياس ذهبا . والأبيات قوله :

قل للفقيه عمارة : يا خير من أضحى يؤلف خطبة وخطابا
اقبل نصيحة من دعاك إلى الهدى قل : حطة ، وادخل إلينا البابا
تلق الأئمة شافعين ، ولا تجد إلا لدينا ، سنة وكتابا
وعلىّ أن يعلو محلك فى الورى وإذا شفعت إلىّ كنت مجابا

فأجابه عمارة بهذه الأبيات :

حاشاك من هذا الخطاب خطابا يا خير أملاك الزّمان نصابا
أما إذا ما أفسدت علماؤكم معمور معتقدى ، وصار خرابا

ودعوتمُ فكرى إلى أقوالكم ... من بعــــد ذاك أطاعكم وأجابا
فاشــدد يديك على صفاء محبتى ... وامنن علىّ ، وسدّ هذا البابا

وأغلق طلائع الباب ، وترك عمارة على ما يعتقد ، ودام الود بينهما طول حياة الوزير ، فلما مات رثاه الشاعر بقصائد كثيرة ، منها قوله :

أفى أهل ذا النادى عليمٌ أسائله ... فإنى لما بى ذاهب اللب ذاهله
سمعت حديثا أحسد الصُّمّ عنده ... ويذهل واعيه ، ويخرس قائله
فقد رابنى من شاهد الحال أننى ... أرى الدّست منصوبا ، وما فيه كافله
وأنى أرى فوق الوجوه كآبة ... تدلّ على أنّ الوجوه ثواكله
ولِمْ لا نبكيه ونندب فقــده ... وأولادنا أيتــــامه وأرامله ؟!

— ٤ —

وقويت صلة وزيرنا بشاعر آخر من أكبر شعراء العصر ، هو أسامة بن منقذ أحد أمراء الشام ، وقد تراسل الوزير والأمير بالشعر ، وشارك كلٌّ منهما صاحبه فيما يصيبه من الخير والشرّ . وكثيرا ما أرسل الملك الصالح إلى أسامه يوسّطه لدى نور الدين ، ليتّحدا معا ضد الفرنج ، وكان أسامة يحمل للوزير التقدير والإجلال ، وكلّ شعره فى الملك الصالح له هذا الطابع ، يتحدث عن شجاعته وجوده وجهاده للفرنج ، كل ذلك فى أسلوب قوىّ ، يملؤه الإعجاب بطلائع ، كقوله :

فتًى ألتجى إليه من الخطب ، ووفرى إن غال وفرى غول
بعلاه أسمو ، ومن فضل ما نوّل أقضى فرض العلا ، وأنيل
ملك يذكر المواعيد والعهـد ، وينسيه فضله ما ينيل
ملكه ملك رحمة ، وقضـايـاه بما جاءنا به التنزيل
أنت حليت بالمكارم أهل العصر ، حتى تعرّف المجهول
وعلا خامل ، وحامى جبان ووفى غادر ، وجاد بخيل
وحميت البلاد بالسيف ؛ فاستصعب منها سهل ، وعزّ ذليل
فابق للمسلمين كهفا ، وللإفرنج حتفا ، ما أعقب الجيل جيل

ومدحه كثير من الشعراء غير عمارة وأسامة ؛ فمنهم الحسن بن على بن الزّبير ؛ قال صاحب الروضتين : لم يكن فى زمانه أشعر منه ، وله شعر كثير ، منه قصيدة غرّاء فى مدح الصالح طلائع بن رزّيك . وروى صاحب الخريدة مما مدح به ابن الزبير طلائع قوله :

وتلقى الدهر منه بليث غاب غدت سمر الرّماح له عرينا
تخال سيوفه إما انتضـاها جداول ، والرّماح لها غصونا
وتحسب خيـله عقبـان دجن يرحن مع الظلام ويغتدينا
إذا قدحت بجنح الليل أورت سنى يغشى عيون الناظرينا

ومنهم أخوه أحمد بن علىّ بن الزبير ، ونصر بن عبد الرحمن ، ويحيى ابن يوسف ، والمهذب بن أسعد الذى مدحه بقصيدة جاء فيها :

يا كعبة الجود ، إن الفقر أقعدنى ورقة الحال عن مفروض حجيكا
من أرتجى يا كريم الدهر ينعشنى جدواه إن خاب سعيي فى رجائيكا
أأمدح الترك أبغى الفضل عندهم والشعر ما زال عند الترك متروكا ؟ !
أم أمدح السوقة النوكى لرفدهم ؟ ! واضيعتا إن تخطتنى أياديكا !
لا تتركنى ، وما أملت فى سفرى سواك ، أقفل نحو الأهل صعلوكا

و بأخرى جاء فيها :

أتحسب ليل الشك يمتدّ بعد ما بدا طالعا شمس السخاء طلائع

ومنهم ابن أبى جرادة الذى يمدحه ، و يشير إلى حادث عباس وابنه ، فيقول:

حامل الأعباء عن كلّ العباد آخذ بالثأر من باغ وعاد
من عصاة أضمروا الغدر ، فهم أهل نصب ونفاق وعناد
قتلوا الظافر ظلما ، وانتحوا لبنى الحافظ بالبيض الحداد
واعتدى عباس فيهم وابنه فوق عدوان يزيد وزياد
مثل سفر قتلوا هاديهم ثم ضلوا ، ما لهم من بعد هاد
جاءهم فى مثل ريح صرصر فتولوا مثل رجل من جراد

قال عمارة : « ووجدت بحضرته من أعيان أهل الأدب الشيخ الجليس أبا المعالى بن الحباب ، والموفق بن الخلاّل صاحب ديوان الإنشاء ، وأبا الفتح محمود بن قادوس ، والمهذب أبا محمد الحسن بن الزبير ، وما من هذه الحلبة أحد

إلا ويضرب فى الفضائل النفسانية ، والرئاسة الإنسانية بأوفر نصيب ، ويرمى شاكلة الصواب ، فيصيب » .

ومما قاله عنه طلائع الآمرى فى مقدمة ديوان الصالح : هو الوزر الكافى ، والوزير الكافل ، . . . فقد نشرت أيامه مطوى الهمم ، وأنشرت رفات الجود والكرم ، ونفقت بدولته سوق الآداب بعد ما كسدت ، وهبّت ريح الفضل بعد ما ركدت ، إذا لها الملوك بالقيان والمعازف ، كان لهوه بالعلوم والمعارف ، وإن عمروا أوقاتهم بالخمر والقمر ، كانت أوقاته معمورة بالنهى والأمر » .

— ٥ —

وكان الصالح طلائع بصيرا بجيد القول ، يعرف الدّرّ والزجاج ، ويميز بين الممتاز والبهرج ، ويدرك المعانى المبتكرة فيستجيدها ، والأسلوب الرائع فيستحسنه؛ فمن ذلك أنه استحسن ما قيل فى وصف مصلوب :

أراد علوّ منزلة وقـــدر ... فأصبح فوق جذع ، وهو عال
ونكّس رأسه لعتاب قلب ... دعاه إلى الغواية والضـــلال

واستحسن :

ولو لم يكن أدرى بما جهل الورى ... من الفضل لم تنفق عليه الفضائل
لئن كان منا قاب قوس فبيننا ... فراسخ من إجـــلاله ومراحل

— ٦ —

أما شعر طلائع فقد ضاع معظمه ، « وكان له ديوان فيه شعر كثير ، يشتمل

على مجلدين ، فى كلّ فن » ، رآهما ابن خلكان ، ولكن بقى القليل من هذا الشّعر الكثير ، تجده متناثرا فى مراجعه .

وكثير من المحفوظ من شعره فى وصف غزواته ، فى بلاد الشام ضد الصّليبيّين ، وقد كان تطهير هذه البلاد من أهمّ مآربه فى الحياة ، وإنّ حديثه ساعة الموت عن أمله ، لأنّه لم يطهر فلسطين من العدو المغير — ليدلّ على ما كان لهذا الأمل من أثر قويّ فى نفسه ، ولعل انصرافه إلى تثبيت الأمن وقواعد النّظام فى البلاد ، هو الّذى حال بينه وبين تكريس كلّ جهده لهذه الغاية ، فإنّ مؤرّخيه يذكرون أنّه لم يترك غزو الفرنج وتسيير الجيوش لهم فى البرّ والبحر طوال عهده ، وكان شديد اللّهفة على أن يعقد مع نور الدّين حلفا يهاجمان به العدو المشترك ، فى ميدانين فى وقت واحد ؛ ليجتاحاه معا ، ويستردا ما اغتصب من أرض الوطن ؛ وتجد فى شعره هذه الرغبة عنيفة متأججة ، فهو كثيرا ما يرسل إلى أسامة بن منقذ يصف له ما قام به من الغزوات ، ويوسّطه لدى نور الدين ، كى يحرّضه على التحالف وغزو الفرنج معا ، فيقول :

ألا هكذا فى الله تمضى العزائم ... وتمضى لدى الحرب السيوف الصّوارم

وتستنزل الأعداء من طود عزّهم ... وليس سوى سمر الرّماح سلالم

وتغزى جيوش الكفر فى عقر دارها ... ويوطا حماها ، والأنوف رواغم

ويوفى الكرام النّاذرون بنذرهم ... وإن بذلت فيه النفوس الكرائم

نذرنا مسير الجيش فى صفر ، فما ... مضى نصفه حتى الذى وهو غانم

بعثناه من مصر إلى الشام قاطعا ... مفاوز وخد العيس فيهن دائم

فما هاله بعد الدّيار ، ولا ثنى عزيمته جهد الظما والسّمائم
إذا ما طوى الرّايات وقت مسيره غدت عوضا منها الطيور الحوائم
تبارى خيولا ما تزال كأنّها إذا ما هى انقضت نسور قشاعم
فإن طلبت قصدا تساوين سرعة قواد مها فى جوّها والقوائم
تصاحبها علما بأن سوف تغتذى بها ، ولها فى الكافرين مطاعم
خيول إذا ما فارقت مصر تبتغى عدا ، فلها النّصر المبين ملازم

ويقول لأسامة من قصيدة أخرى .

فانهض الآن مسرعا ، فبأمثالك ما زال يدرك المطلوب
والق عنّا رسالة عند نور الدّين ، ما فى إلقائها ما يريب
قل له ، دام ملكه ، وعليه من لباس الإقبال برد قشيب :
أيها العادل الذى هو للدّين شباب ، وللحروب شبيب
والذى لم يزل قديما عن الإسلام بالعزم منه تجلى الكروب
وغدا منه للفرنج إذا لا قوه — يوم من الزّمان عصيب
إن يرم نزف حقدهم فللأشطان قناه فى كل قلب قليب
قصدنا أن يكون منا ومنكم أجل فى مسيرنا مضروب
فلدينا من العساكر ما ضاق بأدناهم الفضاء الرّحيب
وعلينا أن يستهلّ على الشام مكان الغيوث مال صبيب

وكلّ قصائده التى تتحدّث عن غزو الفرنج تفيض بهذه الروح الحماسية ، التى تنبىء عن صدق الرغبة ، وتدل على عقيدة متمكنة فى النفس أقوى

تمكّن ، حتى إنّه ليرثى أحد القواد الذين سقطوا فى المعركة قائلا :

مضى طاهر الأثواب من كل ريبة　　شهيدا كما تمضى السّراة الأكارم

هنيئا له ، يسقى الرحيق إذا غدت　　تحيّيه فى الخلد الحسان النّواعم

ولو أننا نبـــكى على فقد هالك　　لقلّت له منّا الدموع السّواجم

ولـكننا بعنـــا الإله نفوسنا　　وربحنا ، ومامنّا على البيع نادم

وإلى جانب فخر طلائع بما يصيبه من الفرج ، وحثّه نور الدّين على النّهوض لحربهم ، ورثاء من يسقط من الأبطال فى ميدان القتال — كان الصالح يفتخر بكثير من أفعاله وسجاياه ، فتسمعه يقول :

وإنّا أناس ليس يـــبرح جارنا　　يحـكّم فى الأموال منا ، فيشتط

ويمتاحنا زوارنا ، فـــكأنّما　　غدا لهم شرط علينا . ولا شرط

ويصبح بسط الـكفّ بالمال عندنا　　وكلّ مليك عنده القبض والبسط

وتخرق شرق الأرض والغرب خيلنا　　عليها الشباب المرد والجلّة الشمط

ويقول :

أبى الله إلا أن يدين لنا الدّهر　　ويخدمنا فى ملـكنا العزّ والنّصر

علمنا بأن المـال تفـــنى ألوفه　　ويبقى لنا من بعده الأجر والذّكر

خلطنا النّدى بالبأس حتّى كأنّنا　　سحاب لديه البرق والرعد والقطر

ترانا إذا رحنا إلى الحروب مرّة　　قرينا، ومن أضيافنا الذئب والنّسر

كما أنّنا فى السلم نبذل جودنا　　ويرتع فى إنعامنا العبد والحرّ

ولطلائع شعر فى الشّوق إلى من يرحل عنه من أعزّائه ، ومن ذلك شعره الذى يشتاق فيه إلى أسامة ، ومن أجمل آثاره فى ذلك ما كتبه إلى صديق له بالشّام :

أحباب قلبى ، إن شطّ المزار بكم ... فأنتم فى صميم القلب سكّان
وإن رجعتم إلى الأوطان إن لكم ... صدورنا عوض الأوطان أوطان
جاورتمُ غيرنا لمّا نأت بكمُ ... داره وأنتم لنا بالودّ جيران
فكيف نفساكمُ يوما لبعدكمُ ... عنّا ، وأشخصكم للعين إنسان

ويبدو لى أن هذا الوزير لم ينس ما مرّ به من تجارب الحياة ، وما شاهده ممن ارتفعوا إلى قمّة المجد والسلطان ، ثم هووا عن سلطانهم ، ومضوا كأمس الدّابر ، ولقد شاهد وزراء كانوا ملء السمع والبصر ، فقتلوا ، ولم يبق لهم من أثر ؛ ويقال : إنّه لما جلس فى دست الوزارة نظم هذه الأبيات بديهة :

انظر إلى ذى الدّار ، كم ... قد حلّ ساحتها وزير
ولكم تبختر آمنا ... وسط الصّفوف بها أمير
ذهبوا ، فلا والله ما ... يبقى الصّغير ولا الكبير
ولمثل ما صاروا إليه من الفناء غدا نصير

وكانت فكرة الموت وترقّبه تراوده فى الحين بعد الحين ، فهو ينتظر وروده . ولعلّ مصرع الوزراء قبله كان ماثلا دائما أمامه ، وربما كان قلبه يناجيه بأنّ مصيرا كمصيرهم ينتظره ، فيقول :

نحن فى غفلة ونوم ، وللمو ... ت عيون يقظانة لا تنام

قد رحلنا إلى الحمام سنينا ليت شعرى متى يكون الحمام

ويقول :

مشيبك قد نضا صبغ الشباب

وحلّ الباز فى وكر الغراب

تنام ، ومقـــلة الحدثان يقظى

وما ناب النّوائب عنك نابى

وكيف بقاء عمرك وهو كنز

وقد أنفقت منـــه بلا حساب

ويرى المرض وسيلة للتذكير بالموت ، عندما ينسى المرء أنه وارد لا محالة :

كم ذا يرينا الدهر من أحداثه عبرا وفينا الصّدّ والإعراض

ننسى الممات ، وليس يجرى ذكره فينا ، فتذكرنا به الأمراض

أما عقيدته الدينية ، فضلا عن تشيّعه ، وتعصّبه لهذا التشيع ، يوافق مذهب المعتزلة فى القضاء والقدر ، إذ يقول :

يا أمة سلـــكت ضلالا بيّنا

حتى استوى إقرارها وجحودها

ملتم إلى أن المعاصى لم يكن

إلاّ بتقـــدير الإله وجودها

لو صح ذا كان الإله بزعمكم

منع الشّريعة أن تقام حدودها

حاشا وكلا أن يكون إلهنا

ينهى عن الفحشاء ، ثمّ يريدها

وله ـ كما يروى المقريزى ـ قصيدة سماها : الجوهرية ، فى الرّدّ على القدرية .

وللصّالح غزل يضعه أحيانا فى مفتتح قصائده ، وحينا يقصد إليه قصدا ، كهذه القطعة التى بدأها بقوله :

ومهفهف ، ثمل القوام ، سرت إلى أعطافه النشوات من عينيه

— ٧ —

شعر طلائع متوسّط الجودة ، يرتفع فى كثير من الأحيان ، ويمتاز بالتّماسك بين أجزائه ، وتسلسل الانتقال من خاطر إلى خاطر ، فهو برغم طول نفسه أحيانا ، إذ تبلغ القصيدة أربعة وستين بيتا ـــ ترتبط أبياته بعضها ببعض ارتباطا وثيقا ، حتى ليخيّل إليك أنك تقرأ رسالة منثورة ، لا قصيدة منظومة .

وخذ أطول ما بقى من قصائده ، وهى القصيدة الميمية التى أوّلها :

ألا هكذا فى الله تمضى العزائم

وتمضى لدى الحرب السيوف الصوارم

تره قد بدأها بالفخر ، والفرح بالنّصر على الأعداء ، و بالحديث عن الجيش

الذى كان أداة لهذا النصر ، حتى إذا تحدّث عن قادته ، وقد استشهد أحدهم ، رثاه بطلا شهيدا ، وأجاد فى رثائه ، ثمّ خصّ كل قبيل كوّن الجيش بتمجيد خاص ، ولا ينسى وصف القوّة المعنويّة التى هى فى الواقع أساس الانتصار ؛ وهنا يشيد طلائع بما يحمله بين جنبيه من عزم يمدّ به الجيش ، فيمضى ، ولا ينثنى :

جيوش أفدناها اعتزاما ونجدة فطاعننا منهم ، ومنّا العزائم

ويمضى واصفا لقاء هذا الجيش الباسل بعدده وعدته وعزيمته وروحه المعنوية القوية ، لجموع الفرنج بالشّام ، وكيف أبيدت هذه الجموع .

فلم ينــج منهم يوم ذلك مخـــبّر .

ولا قيل : هذا وحده اليــــوم سالم

وبالجيش وحسن التدبير استطـاع طلائع أن ينتصر على عدوّه . وإذا كان هو وحده قد استطاع ذلك ، أفلا يكون من المتوقع أن يكون النصر حاسما ، والهزيمة ساحقة ، إذا اتّحد مع نور الدين ؛ لبلوغ هذا الهدف ؟! وهنا يدعو طلائع نور الدين إلى جهاد الفرنج ، ويحثّه عليه ، ويعده بأن غاراته عليهم سوف لا تنقطع فى البر والبحر ، وعندئذ يجد المجـال مهيأ للفخر ، فيفتخر .

وبهذا التحليل الموجز تتبيّن كيف تماسكت أجزاء القصيدة ، وتسلسلت عناصرها ، وارتبط بعض أجزائها ببعض أعظم ارتباط .

ومما هو جدير بالذكر أنّ ما ورد من الأخبار يبيّن لنا أن طلائع كان من

الفرحين بشعره ، المعجبين به ، المحبّين لنشره فى الناس ، قال المقريزى : « وكان له مجلس فى الليل ، يحضره أهل العلم ، و يدونون شعره » ، وروى ابن الأثير فى كامله : « أن الشيخ أبا محمد بن الدهان النحوى البغدادى المقيم بالموصل قد شرح بيتا من شعره ، وهو :

تجنّب سمعى ما يقول العواذل وأصبح لى شغل من الغزو شاغل

فجهّز إليه هديّة سنيّة ، ليرسلها إليه . . . وبلغه أيضاً أن إنساناً من أعيان الموصل قد أثنى عليه بمكّة ، فأرسل إليه كتاباً يشكره ، ومعه هديّة » .

أمّا رأى العماد الأصبهانىّ فهو يستكثر على طلائع أن يكون ذلك الشّعر له ، قال : « وله قصائد كثيرة مستحسنة ، أنفذها إلى الشّام ، يذكر فيها قيامه بنصر الإسلام ، وما يصدّق أحد أنّ ذلك شعره لجودته ، وإحكام معانى حكمته ، وأقسام معانى بلاغته ، فيقال : إن المهذّب بن الزبير كان ينظم له . والجليس ابن الحباب كان يعينه » . وروى صاحب معجم الأدباء ماقيل من « أنّ أكثر الشّعر الذى فى ديوان الصّالح إنّما هو من عمل المهذّب بن الزّبير ، وحصل له من الصّالح مال جمّ ، ولم ينفق عنده أحد مثله » .

والذى أراه أنّ ذلك غلوّ و إغراق ، فمن زعم ذلك يستكثر على الصّالح أن ينتج مثل ذلك الشّعر ، ولم يورد دليلا قاطعاً ، إنّما هو الظّنّ ، أمّا من عاشوا مع الصالح وخالطوه ، فلم يشكّوا فى شعره . ولكنّى أسلم بأنّ الصالح كان

يعرض شعره على المشهورين من شعراء عصره ، ليروا رأيهم فيه ، وليصلحوا ماقد يكون فيه من هفوات ، قال عمارة : « دخلت إليه ليلة السادس عشر من شهر رمضان سنة ست وخمسين وخمسمائة ، قبل أن يموت بثلاث ليال ، بعد قيامه من السماط ، ولم أكن رأيته من أوّل الشهر بليل ، فأمر لى بذهب ، وقال : لا تبرح ؛ ودخل ، ثم خرج إلىّ ، وفى يده قرطاس قد كتب فيه بيتين من شعره ، عملهما فى تلك الساعة ، وهما : نحن فى غفلة ونوم . . . الخ البيتين ؛ ثم قال لى : تأملهما ، وأصلحهما ، إن كان فيهما شىء ؛ قلت : هما صالحان . وكان آخر عهدى به ، لأنه مات بعد هذا بثلاثة أيام » .

فالذى لا نشكّ فيه هو أنّ هذا الشعر للصالح طلائع ، والذى لا نستبعده هو أنّ الوزير المصرىّ ، وقد كان محاطا بطائفة من الشعراء الممتازين — لا يجد غضاضة فى أن يعرض شعره عليهم ، فلم يكن منصبه العظيم يتطلّب أن يكون شيخ شعراء عصره .

— ٨ —

وصنف الصالح طلائع كتاباً ، سماه : « الاعتماد ، فى الرّدّ على أهل العناد » ، جمع له الفقهاء ، وناقشهم فيه ، وناظرهم عليه . قالوا : والكتاب يتضمّن إمامة علىّ بن أبى طالب ، والكلام على الأحاديث الواردة فى ذلك .

وكان الصالح على مذهب الشّيعة الإمامية ، وهو يخالف مذهب الفواطم ،

ولعل ذلك كان من بين الأسباب التى جعلته ثقيلا على القصر ، فحاول القصر التّخلّص منه ، كما سبق أن ذكرنا .

— ٩ —

و بنى الصالح طلائع مسجدا لا يزال باقيا إلى اليوم ، خارج باب زويلة ، ولعلّه كان يريد أن يجعل من هذا المسجد مثوى لرأس الحسين ، فقد عزم على أن يحضره من عسقلان ، ولكن الخليفة الفائز عزم على أن يكون له شرف هذا النقل ، وأن يكون رأس جدّه بين القصور الفاطمية ، فتمّ له ما أراد .

وقد ندم طلائع على بناء مسجده حيث بناه ، إذ يصير عونا لمن يحاصر القاهرة ، يجد فيه خير مأوى يساعده .

— ١٠ —

ولأختم الحديث عن طلائع برواية بعض ما قاله المؤرّخون عنه ، محصين ما له وما عليه :

أما عمارة فيعد مما عليه فرط العصبية فى المذهب . قال : « ولو شرحت هذه الواحدة لكثرت وطالت ، واتسعت وعالت » ، و يعدّ مما عليه كذلك جمع المال واحتجانه ، و يراها المؤرّخ غرامه وأشجانه .

و يقول عنه المقريزى : « كان شجاعا ، كريما ، جوادا ، فاضلا ، محبّا لأهل الأدب ، جيّد الشّعر ، رجل وقته : فضلا ، وعقلا ، وسياسة ، وتدبيرا ، وكان مهابا فى شكله ، عظيما فى سطوته ، وجمع أموالا عظيمة ، وكان محافظا على

الصلوات : فرائضها ، ونوافلها ، شديد المغالاة فى التّشيّع . . . وباع ولايات الأعمال للأمراء بأسعار مقرّرة ، وجعل مدّة كل متولٍّ ستة أشهر ، فتضرّر النّاس من كثرة تردّد الولاة على البلاد ، وتعبوا من ذلك . وكان له مجلس فى اللّيل يحضره أهل العلم ، ويدوّنون شعره ، ولم يترك مدّة أيّامه غزو الفرنج وتسيير الجيوش لقتالهم فى البرّ والبحر ، وكان يخرج البعوث فى كل سنة مرارا ، وكان يحمل فى كل عام إلى أهل الحرمين : مكّة ، والمدينة ، من الأشراف سائر ما يحتاجون إليه من الكسوة ، وغيرها ، حتى يحمل إليهم ألواح الصبيان التى يكتب فيها ، والأقلام ، والمداد » .

وقال عنه ابن الأثير : « كان الصّالح كريما ، فيه أدب ، له شعر جيد ، وكان لأهل العلم عنده نفاق ، ويرسل إليهم العطاء الكثير » .

وقال Lane - Poole : « كان رجلا قويا ، وكانت مصر فى حاجة إلى رجال أقويا فى ذلك الحين » .

ووصفه ابن خلّكان بأنّه كان فاضلا ، سمحا فى العطاء ، سهلا فى اللقاء ، محبّا لأهل الفضائل ، جيد الشّعر .

ويكاد مؤرّخوه يجمعون على فضله وعظيم مواهبه ، وأنّه وطّد أركان النظام فى مصر ، ولا يأخذون عليه إلا أنه كان محبّا للمال ؛ فباع من أجل ذلك الولايات للأمراء .

ونحن نوافق المؤرّخين على ما ذهبوا إليه ، ولكنّا نسجل له إلى جانب

هذه السيئة حدبه على أهل العلم ، وعطفه على رجال الأدب ، ورغبته القوية في أن يعد واحدا من بينهم .

مراجع البحث :

الأخبار السنيّة فى الحروب الصليبيّة ، للحريرى .
بدائع البدائه ، لعلى بن ظافر الأزدى .
البداية والنهاية ، لابن كثير .
تاريخ أبى شاكر بطرس .
تاريخ الإسلام ، للذهبى .
حسن المحاضرة ، للسيوطى .
خريدة القصر ، للعماد الكاتب .
ديوان أسامة بن منقذ .
الروضتين ، لأبى شامة المقدسى .
السلوك فى دول الملوك ، للمقريزى .
شذرات الذهب ، لابن العماد الحنبلى .
صبح الأعشى ، للقلقشندى .
الطالع السعيد ، لجعفر بن ثعلب الأدفوى .
عقد الجمان ، للعينى .
الفاطميون فى مصر ، للدكتور حسن إبراهيم حسن .
قلادة النحر بأعيان وفيات الدهر ، لمحمد الطيب ،

الكامل فى التاريخ ، لابن الأثير .

مختار من ديوان عمارة .

مرآة الزمان ، لبسط ابن الجوزى .

مصر فى العصور الوسطى ، للدكتور على إبراهيم حسن .

معجم الأدباء ، لياقوت .

معجم السلفى .

المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار ، للمقريزى .

نثر الجمان ؛ للفيومى .

النجوم الزاهرة ، لابن تغرى بردى .

النكت العصرية ، لعمارة اليمنى .

نهاية الأرب ، للنويرى .

الوافى بالوفيات ، للصفدى .

وفيات الأعيان ، لابن خلكان .

History of Egypt in the Middle Ages. by Lane - Poole.

حلوان الحمامات ، فى { ٦ شوال سنة ١٣٧٧ هـ .
٢٥ أبريل سنة ١٩٥٨ م .

مراجع

شعر طلائع بن رزيك

رجعت فيما جمعته من شعر طلائع بن رزّيك إلى المراجع الآتية :

١ — بدائع البدائه ، لعليّ بن ظافر الأزدى ، المتوفى سنة ٦٢٧ هـ .
(مطبعة بولاق سنة ١٢٧٨ هـ) .

٢ — البداية والنهاية ، لإسماعيل بن كثير ، المتوفى سنة ٧٧٤ هـ .
(مطبعة السعادة بالقاهرة) .

٣ — خريدة القصر وجريدة العصر ، للعماد الكاتب ، المتوفى سنة ٥٩٧ هـ .
قسم شعراء مصر — الجزء الأول .
بتحقيق الدكتور أحمد أمين ، والدكتور شوقى ضيف ، وإحسان عباس .
(مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر سنة ١٩٥١ م) .

٤ — ديوان أسامة بن منقذ . بتحقيق الدكتور أحمد أحمد بدوى ، والدكتور حامد عبد المجيد .
(المطبعة الأميرية سنة ١٩٥٣ م) .

٥ — الروضتين فى أخبار الدولتين ، لعبدالرحمن بن إسماعيل المقدسى ، المتوفى سنة ٦٦٥ هـ . (مطبعة وادى النيل بمصر سنة ١٢٨٧ هـ) .

٦ — شذرات الذهب فى أخبار من ذهب .
لعبد الحىّ بن العماد الحنبلى ، المتوفى سنة ١٠٢٩ هـ .
(طبع القاهرة سنة ١٩٥٠ هـ) .

٧ — عقد الجمان فى تاريخ أهل الزمان .
لمحمود بن أحمد المعروف بالعينى ، المتوفى سنة ٨٥٥ هـ .
(مخطوط بدار الكتب رقم ٧١ م تاريخ) .

٨ — الكامل فى التاريخ ، لعلى بن محمد بن الأثير ، المتوفى سنة ٦٣٠ هـ .
(المطبعة الأزهرية المصرية سنة ١٣٠١ هـ) .

٩ — مرآة الزمان .
لأبى المظفر يوسف بن قزأوغلى المعروف بسبط ابن الجوزى ، المتوفى ٦٥٤ هـ .
(مخطوط بدار الكتب رقم ٢١٨١ تاريخ) .

١٠ — المواعظ والاعتبار ، فى ذكر الخطط والآثار .
لأحمد بن على المقريزى ، المتوفى سنة ٨٤٥ هـ .
(مطبعة النيل بمصر سنة ١٣٢٤ هـ) .

١١ — النجوم الزاهرة ، فى ملوك مصر والقاهرة .
ليوسف بن تغرى بردى الأتابكى .
(طبع القاهرة سنة ١٣٥٢ هـ (١٩٣٥ م) .

١٢ — النكت العصرية فى أخبار الوزراء المصرية .
لعمارة اليمنى ، المتوفى سنة ٥٦٩ هـ .
(طبع مدينة شالون سنة ١٨١٧ م) .

١٣ — نهاية الأرب فى فنون الأدب .

لأحمد بن عبد الوهاب النويرى ، المتوفى سنة ٧٣٢ هـ .

(مصور بدار الكتب رقم ٥٤٩ معارف عامة) .

١٤ — الوافى بالوفيات .

لصلاح الدين خليل بن أيبك الصفدى ، المتوفى سنة ٧٣٢ هـ .

(مصور بدار الكتب رقم ١٢١٩ تاريخ) .

١٥ — وفيات الأعيان .

لأحمد بن خلكان ، المتوفى سنة ٦٨١ هـ .

(المطبعة الميمنية سنة ١٣١٠ هـ) .

والحمد لله الذى هدانا لهذا ، وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله .

بسم الله الرحمن الرحيم

باب الغزل

قافية البـاء

من شعر الصالح فى مملوكه رآه يوم العيد، فى السلاح، لابس الحديد[1]:

لَبِسَ الحَدِيدَ، فَزَادَنِي إِعْجَابِهِ ... بَدْرٌ تَظَلُّ الشَّمْسُ مِنْ حُجَّابِهِ

لاَ مَطْمَعٌ فِي أَنْ يَرِقَّ، وَقَلْبُهُ ... أَقْسَى عَلَى العُشَّاقِ مِنْ جِلْبَابِهِ

قَدْ كَانَ يُغْنِيهِ سُيُوفُ لِحَاظِهِ ... عَنْ حَمْلِ صَارِمِهِ لِيَوْمِ ضِرَابِهِ

لَوْ جَادَ لِي فَوْقَ اللِّثَامِ بِقُبْلَةٍ ... تَشْفِي فُؤَادَ الصَّبِّ مِنْ أَوْصَابِهِ

رَوَّيْتُ ظَامِئَةَ الرِّمَاحِ مِنَ العِدَا ... وَضَنِيتُ من ظَمَأٍ لِبَرْدِ شَرَابِهِ

قافية الشين

وقال[2]:

عَاذِلِي، عَذْلُكَ سَهْمٌ فِي الحَشَا ... كَيْفَ يَشْمَانِي، وَسِرِّي قَدْ فَشَا؟!

---

(١) النص من خريدة القصر ١ : ١٨٠ .

(٢) النص من المرجع السابق ص ١٨١ .

صَارَمَا بِى مِنْ غَرَامٍ كَامِنٍ ظَاهِراً يَنْقُلُهُ وَاشٍ وَشَى
مَنْ رَأى قَبْلِى يَارِيمَ الفَلاَ أَسَدًا يَقْنِصُهُ لحظُ رَشَا[1]

ومنها :

وجهُكَ الرَّوضةُ آتَتْ نَرْجِساً وَجَنِىُّ الوَرْدِ فِيهَا فُرِشَا
خِفْتَ أن يُجْنَى ، فوكَّلتَ بها عَقْرَباً طَوْراً ، وطَوْراً حَنَشَا

قافية الطّاء

وقال[2] :

ألاَ إنَّ أشواقِى بِقَلْبِىَ بَرَّحَتْ فَأَصْبَحْتُ فِى بَحْرٍ بَعيدٍ مِنَ الشّاطِى
قَلِقْتُ ، وَقَدْ جَدَّ الفِرَاقُ ، لِبُعدِكُمْ كَأَنِّى عَلَى جَمْرِ الغَضَا بَعْدَكُمْ وَاطِى
وَلاَ غَرْوَ فِيكُمْ أن أُقِضَّتْ مَضَاجِعِى
وَقَدْ بَانَ فى حُبِى لَكُمْ وَجْهُ إِفْرَاطِى

قافية القاف

وأنشدَ زَينُ الدِّين بنُ نجا[3] الوَاعِظُ الدِّمَشْقِىُّ له فى غلامٍ سابقٍ على حصانٍ أخضر أشقر[4] :

---

(١) الريم : الظبي الخالص البياض . و لرشأ : الظبي إذا قوى ومشى مع أمه .

(٢) النص من خريدة القصر ١ : ١٨١ .

(٣) هو زين الدين على بن إبراهيم بن نجا ، واعظ مشهور فى عصره ، توفى سنة ٥٩٩ هـ . وله ترجمة فى كتابنا : الحياة الأدبية ، فى عصر الحروب الصليبية ، بمصر والشام .

(٤) النص من خريدة القصر ١ : ١٨٢ .

ولمّا حضَرْنا للسِّباقِ تبادَرَتْ خُيُولٌ ، ومَنْ أهواهُ أَقْدَمُها سَبقَا

عَلَى أشْقَرٍ شِبْهِ اللَّهِيبِ تَوَقُّداً

ولَوْناً ؛ فَقلْنا : البَدْرُ قَد رَكِبَ البَرْقَا

قافيـــة اللاّم

وقال[1] :

وفَاتِرِ الطَّرْفِ فِي الخَد الأَسِيلِ لَهُ وَرْدٌ جَنِيٌّ ، حَمَتْهُ أسهُمُ المُقَلِ

نَهَبْتُهُ بِفَمِي لَثْماً ، وَقَدْ غَفَلَتْ

عَيْنُ الرَّقِيبِ ، وَكَلَّتْ أَلْسُنُ العَذَلِ

وَخَافَ أَنْ يَفْطَنَ الوَاشِي بِنَا وَبِهِ فَعَادَ يُخْلِفُ مَا قَدمَنَّ بالخَجَلِ

إنْ مَالَ عَنِّي فَقَد مَالَ النَّعِيمُ ، وَإِنْ

يَمِلْ إلَيَّ أَجِدْهُ غَايَةَ الأَمَلِ

هَابَتْ سُطَايَ لُيُوثُ الغَابِ غَادِيةً وَرُحْتُ مِن لَحَظَاتِ الظَّبي فِي وَجَلِ[2]

فَرَّجْتُ ضَنْكَ[3] الوَغَى فِي كُلِّ مَعْرَكَةٍ

بِحَدِّ سَيْفِي ، وضَاقَتْ في الهوَى حِيَلِي

(١) النص من المرجع السابق ص ١٨١ .
(٢) الوجل : الخوف .
(٣) الضنك : الضيق .

وروى ابن ظافر فى كتابه : بدائع البدائه[١] ، قال : أخبرنى بعض أصحابنا المصريّين أن بعض جُلَساء الصالح بن رُزّيك أنشد بمجلسه بيتاً من الأوزان الّتى يسميها المصريون : الزّكالش ، و يسميها العراقيون : كان وكان :

النَّارُ بَيْنَ ضُلُوعِى وَنَا غَرِيقٌ فى دُمُوعِى[٢]
كَأنِى[٣] فَتيلَةُ قِنْدِيلْ أمُوتْ غَرِيقْ وَحَرِيقْ[٤]

وكان عنده القاضى الجليس أبو المعالى بن عبد العزيز بن الحباب[٥] ، والقاضى المهذّب بن الزّبير[٦] ؛ فتقدّم إليهما بنظم معناه ، فصنعا بديها ، فكان ماصنعه الجليس :

هل عاذِرٌ إن رُمْتُ خَلْعَ عِذَارِى فِى شَمِّ سَالِفَةٍ ، ولَثْمِ عِذَارِ
تَتَألَّفُ الأضْدَادُ فِيهِ ، وَلم تَزَلْ فِى سَالِفِ الأيَّامِ ذَاتَ نِفَارِ
فَلَهُ[٧] من الزَّفَرَاتِ لَفْحُ صَوَاعِقٍ وَلَهُ مِن العَبَرَاتِ لُجُّ بِحَارِ[٨]
كَذُبالَةِ القِنْدِيلِ ، قُدِّرَ هُلْكُهَا مَا بَيْنَ مَاءٍ فِى الزُّجَاجِ وَنَارِ

(١) ص ١٣٣ ، والنص أيضا فى خريدة القصر ١ : ١٨٢ .
(٢) فى الخريدة : وأنا غريق مدامعى .
(٣) فى البدائع : كنى ، و يريد : كأنى .
(٤) فى الخريدة : آموت حريق غريق .
(٥) أديب مترسل شاعر ، كان يجالس خلفاء مصر الفاطميين ، فسمى بالجليس ، توفى سنة ٥٦١ هـ
(٦) شاعر مجيد ، ذكر العماد أنه أشعر أهل زمانه ، توفى سنة ٥٦١ هـ . وله ترجمة بكتابنا : الحياة الأدبية ،فى عصر الحروب الصليبية .
(٧) فى البدائع : وله .
(٧)ورد هذا الشطر فى الخريدة : تروى ، وبالعبرات سح بحار .

وكان ما صنعه ابن الزبير :

كأنِّى ، وقد سالت[1] سُيولُ مَدامِعى

فأذكت[2] حريقاً فى الحَشا والترائب

ذُبالةُ قِنديلٍ تَعُومُ بِمائِهـــا

وتُشْعَلُ فيها النَّارُ مِن كُلِّ جانِب

وصنع الصّالح :

وإذا تُشَبُّ النَّارُ بينَ أضالِعى قابَلْتُها مِن عَبْرَتى بِسُيُـــولِ

فأنا الحَريقُ ، بَل الغَريقُ[3] ، أمُوتُ فِى

هَـــذا وَذا ، كذُبالَةِ القِنْـــديلِ

قافيـــة النّون

وقال[4] :

ظَبْىٌ يُحيِّرُ فى المَلاحَةِ ، كُلَّما كَرَّرْتُ طَرْفِى فِى بَدِيعِ فُنُونِه

أشْكو إلَيْهِ صَبابَتِى ، فَيُجيبُنِى وِرْدٌ يُبَرِّدُ لَوْعَتى بِيَمِينِه

قَسَماً بِهِ ، وبِوَرْدَةٍ فى خَدِّهِ وَنَمامِ قَامَتِهِ ، وسِحْرِ جُفونِه

(١) فى الجريدة: فاضت .

(٢) فى الجريدة . فشبت .

(٣) فى الجريدة : فأنا الغريق ، بل الحريق .

(٤) النص من الجريدة ١ : ١٨٢ .

لَوْ أَنَّ رَكْباً فى الفَـــلاَةِ تَحَيَّرُوا ... لَسَرَوْا بِضَوْءِ مِن هِلاَلِ جَبِينِهِ

قافيـــة اليـاء

وقال[1]:

وَمُهَفْهَفٍ ، ثَمِلِ القَوامِ ، سَرَتْ إلَى ... أَعْطَافِهِ النَشَوَاتُ مِن عينَيْهِ[2]

مَاضِى اللَّحَاظِ كأنَّما سَلَّتْ يَدِى ... سَيْفِى[3] غَدَاةَ الرَّوْعِ مِن جَفْنَيه

قَدْ قُلْتُ إِذْ خَطَّ العِذَارُ بِمِسْكَةٍ ... فى خَدِّهِ أَلِفَيْهِ لاَ لاَمَيْه[4] :

ما الشَّعْرُ دَبَّ[5] بِعارِضَيْهِ ، و إِنَّمَا ... أَصْدَاغُهُ نَفَضَتْ عَلَى خَدَّيْهِ

النَّاسُ طَوْعُ يَدِى ، وأَمْرِى نافذٌ ... فِيهِمْ ، وَقَلْبِى الآنَ طَوْعُ يَدَيْهِ

فَاعْجَبْ لِسُلْطَانٍ يَعُمُّ بِعَدْلِه ... وَيَجُورُ سُلْطانُ الغَرَامِ عَلَيْهِ

واللهِ ، لَوْلا اسْمُ الفِرَارِ وأَنَّهُ ... مُسْتَقْبَحٌ لَفَرَرْتُ مِنْهُ إِلَيْه[6]

---

(١) النص من الخريدة ١ : ١٧٧ ، ووفيات الأعيان ١ : ٢٣٨ ، وشذرات الذهب ٤ : ١٧٧ ، وعقد الجمان : القسم الثانى ، والوافى بالوفيات جـ ٥ قسم ١ ص٢١٣ .

(٢) المهفهف: الضامر البطن، الدقيق الخصر. والثمل: السكران . والأعطاف: الجوانب: والنشوات : جمع نشوة ، وهى : السكر .

(٣) فى الخريدة : سيفا .

(٤) يتأخر مكان هذا البيت وتاليه فى الخريدة بعد بيت: الناس طوع يدى . وفيها : كتب العذار ... فى ورده ... وفى الشذرات : ... خط العذار بمسكه ... فى خديه ألفين ... ببعض التحريف .

(٥) فى الخريدة : لاح .

(٦) قال صاحب الوافى بعد أن أورد هذه القطعة :قلت : أخذ البيت الثانى من قول ابن هانىء المغربى :

ما كان أفتكنى لو اخترطت يدى ... من ناظريك على عذولى مرهفا

باب الإخوانيات

قافية القاف

قال زين الدين الواعظ : دفع إليَّ الصالحُ هذه الأبياتَ يوم صنع الدَّعوة لأخيه[1] :

أَنِستُ بِكُمْ دَهْراً ، فَلَمَّا ظَعَنْتُمُ اسْتَقَرَّتْ بِقَلْبِي وَحْشَةٌ لِلتَّفَرُّقِ

وأعجبُ شَيْءٍ أَنَّنِي يَوْمَ بَيْنِكُمْ بَقِيتُ، وَقَلْبِي، بَيْنَ جَنْبَيَّ، مَا بَقِي

أَرَى البُعْدَ مَا بَيْنِي وَبَيْنَ أَحِبَّتِي

كَبُعْدِ المَدَى مَا بَيْنَ غَرْبٍ ومَشْرِقِ[2]

أَلاَ جِدِّي يا نَفْسُ وَجْداً وَحَسْرَةً

فَهَذَا فِرَاقٌ بَعْدَهُ لَيْسَ نَلْتَقِي

قال : فلم يبق بعدها لهم اجتماع فى مسرة ، وقتل فى شهر رمضان ، ولم يلتقيا بعد ذلك .

(١) ورد النص فى مرآة الزمان جـ ٨ بهذه المقدمة ، وفى خريدة القصر ١ : ١٨٤ بمقدمة أخرى ، هذا نصها : عمل فارس المسلمين أخو الصالح له دعوة فى شعبان من السنة التى قتل فيها ، فعمل هذه الأبيات ، وسلمها إلى » . وفى الضمائر التواء قد يفهم منها أن الشعر لأخى الصالح .

(٢) لم يرد هذا البيت فى مرآة الزمان .

قافية النّــون

قال العماد فى الخريدة[1] : أنشدنى زين الدّولة الحسين بن الوزير أبى الكرام، قال : كتب الصالح بن رزّيك إلى والدى ، بعد عوده من مصر إلى الشام ، سنة إحدى وخمسين :

أَحْبابَ قَلْبِيَ ، إنْ شَطَّ الْمَزارُ بِكُمْ فَإِنَّكُمْ[2] فى صَمِيمِ القَلْبِ سُكّانُ

وَإِنْ رَجَعْتُمْ إلَى الأَوْطَانِ إنَّ لَكُمْ صُدُورَنَا عِوَضَ الأَوطَانِ أَوْطَانُ

جاوَرْتُمُ غَيرَنَا ، لمَّا نَأَتْ بِكُمُ دَارٌ ، وأَنْتُمْ لَنَا بِالوُدِّ جِيرَانُ

فَكَيْفَ تَنْسَاكُمُ يوماً لِبُعْدِكُمُ عَنَّا ، وشَخْصُكُمُ[3] لِلْعَينِ إنْسَانُ

---

(١) ١ : ١٧٢ ، وورد أيضا فى النجوم الزاهرة ٥ : ٣٦٠ ، وعقد الجمان : القسم الثانى ، ومرآة الزمان جـ ٨ .

(٢) هذه رواية الخريدة ، وفى غيرها ، فأنتم .

(٣) فى النجوم الزاهرة : وأشخصكم .

باب الحكمة

قافية الباء

وقال[1] :

مَشِيبُكَ قَدْ نَضَا[2] صِبْغَ الشَّبَابِ   وَحَلَّ البَازُ فِي وَكْرِ الغُرَابِ[3]
تَنَامُ وَمُقْلَةُ الحَدَثَانِ يَقْظَى   وما نَابُ النَّوَائِبِ عَنْكَ نَابِي[4]
وَكَيْفَ بَقَاءُ[5] عُمْرِكَ وهُوَ كَنْزٌ   وَقَدْ أَنْفَقْتَ مِنْهُ بِلاَ حِسَابِ

قافية التاء

وقال[6] :

يا مَائِساً فَوْقَ الثَّرَى   رِفْقاً، فَسَوفَ تَصِيرُ تَحْتَهْ
إنْ قُلْتَ : إنِّى أعْرِفُ المَوْلَى القَدِيرَ ، فمَا عَرَفْتَهْ

(١) النص فى خريدة القصر ١ : ١/٥ ، والنجوم الزاهرة ٥ : ٣١٤ ، وعقد الجمان القسم الثانى ، والبداية والنهاية ١٢ : ٢٤٤ ، ووفيات الأعيان ١ : ٢٣٩ ، والوافى بالوفيات جـ ٥ قسم ١ ص ٢١٤ .
(٢) فى النجوم : رمى ، وفى البداية : محا .
(٣) فى الوافى : العقاب .
(٤) لم يرد هذا البيت فى النجوم .
(٥) فى البداية : نفاد .
(٦) النص من نهاية الأرب ٢٦ : ٩٧ .

إنْ كُنْتَ تَعْبُدُ لِلْمَخَافَةِ والرَّجَاء فَمَا عَبَـــدْتَه

قافيــة الثّاء

قال[1] :

أيُّهَا المَغْرُورُ ، لاَ تَغْتَرْ ، فَوَرْعَاكَ خَبِيثُ
سَائِقُ المَوْتِ وَإِنْ طَالَ بِنَا العُمْرُ حَثِيثُ[2]
إِنَّ مَنْ جَادَتْ عَلَى الخَلْقِ بِجَدْوَاهُ يُمُوتُ
وَأُولُو المَجْدِ القَدِيمُ العَهْدِ مِنْهُمْ والحَدِيثُ
أَصْبَحَ اليَوْمَ حَدِيثاً وغَداً نَحْنُ حَدِيثُ

قافيــة الرّاء

وقال[3] :

يا مَرِيضَ القَلْبِ بِالذَّنْبِ ، مَتَى بِالعَفْوِ تَبْرَا
كُلَّمَا جَدَّدْتَ يوماً تَوْبَةً ضَيَّعْتَ أُخْرَى
تَشْتَهِي الأَجْرَ ، وَلاَ تَفْعَلُ ما يُكْسِبُ أَجْرَا

---

(١) النص من خريدة القصر ١ : ١٨٥ .
(٢) الحثيث : السريع .
(٣) النص من نهاية الأرب ٢٦ : ٩٧ .

أتُرَى بَعْدَ ذَهَابِ العُمْرِ تَسْتَأْنِفُ عُمْرا

وروى العماد قال:[١] حدثنى أبو الذكاء البعلبكى[٢]، وكان رسولا بمصر، قال: لما جلس الصالح بن رزّيك فى دست الوزارة نظم هذه الأبيات (بديهة):[٣]

أُنظُرْ إلى ذِى الدَّارِ، كَمْ قَدْ حَلَّ سَاحَتَهَا وَزِيرْ
وَلَكَمْ تَبَخْتَرَ آمِنًا وَسْطَ الصُّفُوفِ بِهَا أَمِيرْ
ذَهَبُوا، فَلاَ واللهِ مَا يَبْقَى الصَّغِيرُ، ولاَ الكَبِيرْ
وَلِمِثْلِ مَا صَارُوا إِلَيْهِ: مِنَ الفَنَاء، غَدًا نَصِيرْ

قافية الصّاد

وقال[٤]:

يَا رَاكِبًا ظَهْرَ المَعَاصِى أَوَمَا تَخَافُ مِنَ القِصَاصِ
أَوَمَا تَرَى أَسْبَابَ عُمْرِكَ فِى انْتِقَاضٍ وانتِقَاصِ

(١) خريدة القصر ١ : ١٨٣. والنص فى الروضتين أيضاً ١ : ١٢٠ ببعض هذه المقدمة.

(٢) ذكره السلفى فى معجمه، ورقة ٢٣٢، وقال عنه: أبو الذكاء فهم بن حسان بن أحمد اليمنى الدمشقى، كان من أهل الفهم والأدب، قدم الثغر (يريد الإسكندرية)، وسافر إلى الأندلس، ثم رجع إلينا، وتوجه إلى الشام.

(٣) زيادة فى الروضتين.

(٤) النص من الخريدة ١ : ١٨٤، وعقد الجمان: القسم الثانى، ومرآة الزمان ج ٨.

قافية الضّاد

وقال[1] :

كَمْ ذَا يُرِينا الدّهرُ من أحداثه ... عِبَراً ، وفينا الصّدُّ والإعراضُ؟!

نَنْسَى المَمَاتَ ، وَلَيْسَ يَجْرِى[2] ذِكْرُهُ ... فينا ، فتُـــذْكِرُنا بِهِ الأَمْرَاضُ

قافيـة الميم

ذكر عمارة اليمنى قال : دخلت عليه ليلة السادس عشر من شهر رمضان ، سنة ستّ وخمسين وخمسمائة ، قبل أن يموت بثلاث ليال بعد قيامه من السّماط ، فأمر لى بذهب، وقال: لاتبرح؛ ودخل ، ثم خرج إلىّ ، وفى يده قرطاس ، قد كتب فيه بيتين من شعره ، عملهما فى تلك الساعة ، وهما :

نَحْنُ فى غَفْـلَةٍ وَنَوْمٍ ، ولِلمَوْ ... تِ عُيُونٌ يَقْظَانَةٌ لاَ تَنَامُ

قَدْ رَحَلْنَا إِلَى الحِمَامِ سِنِيناً ... لَيْتَ شِعْرِى مَتَى يَكُونُ الحِمَامُ

ثمّ قال لى : تأملهما ، وأصلحهما إن كان فيهما شىء ؛ قلت : هما صالحان . وكان آخر عهدى به ؛ لأنه مات بعد هذا بثلاثة أيام[3] .

---

(١) النص من النجوم الزاهرة ٥ : ٣١٤ ، ووفيات الأعيان ١ : ٢٣٨ ، والبداية والنهاية ١٢ : ٢٤٤ ، وعقد الجمان . القسم الثانى ، والوافى بالوفيات جـ ٥ قسم ١ ص ٢١٤ ، وقد علق عليه بقوله : قلت :شعر جيد للغاية .

(٢) فى النجوم نجرى .

(٣) النص من النكت المصرية ص ٤٧ ، والخريدة ١ : ١٨٠ ، والكامل لابن الأثير ١١ : ١٢٣ ، والبداية والنهاية ١٢ : ١٤٤ ، ونهاية الأرب ٢٦ : ٩٧ : والنجوم الزاهرة=

قافيــة النّون

وقال[1] :

يَادَهْرُ ، حَسْبُكَ ما فَعَلْتَ بِنَا أَتُرَاكَ تَطْلُبُ عِنْدَنَا إِحَنَا[2]

كَمْ نَتَّقِيكَ بِكُلِّ سَابِغَةٍ[3] وَسِهَامُ كَيْدِكَ تَخْرِقُ الجُنَنَا[4]

مَا تَنْفَعُ الدِّرْعُ الحَصِينَةُ مَنْ عَمَّا قَلِيلٍ يَلْبَسُ الكَفَنَا

كلاَّ ، ولاَ الايَّامُ تَقْبَلُ عَنْ أَرْوَاحِنَا رَشْواً وَلاَ ثَمَنَا

لَوْ بِالثُّرَيَّا حَلَّ مُعْتَصِمٌ مِنْهَا لَكَانَ لَهُ الثَّرَى وَطَنَا

وَلَقَدْ يُهَوِّنُ مَا أَصَابَكُمُ فَقْدُ الحُسَيْنِ الطُّهْرِ وَالحَسَنَا

وَبَنِيهِمُ ، إِذْ طَوَّحَتْ بِهِمُ أَيْدِى زَمَانِهِمُ هُنَا وهُنَا

وَأَرَى الأَئِمَّةَ جَارَ دَهْرُهُمُ فى فِعْلِهِ بِهِمُ ، فَكَيْفَ أَنَا

لِى أُسْوَةٌ بِهِمُ الغَدَاةَ إِذَا أَصْبَحْتُ فى الأَجْدَاثِ مُرْتَهِنَا

وقال[5] :

خُضْ بِحَارَ المَوْتِ فى النُّقْلَةِ مِنْ دَارِ الهَوَانِ

= ٥ : ٣٦٠ وعقد الجمان : القسم الثانى ، ومرآة الزمان جـ ٨ ، وورد البيت الثانى فى المراجع الثلاثة الاخيرة هكذا :

قد دخلنا الحمام عاما ودهرا ليت شعرى متى يكون الحمام ؟

(١) النص من الخريدة ١ : ١٨٤ .

(٢) الإحن : جمع إحنة ، وهى الحقد والغضب .

(٣) درع سابغة . تامة طويلة .

(٤) الجنن : جمع جنة ، وهى كل ماوقى .

(٥) النص من الخريدة ١ : ١٧٨

وَاحْمِلِ النَّفْسَ مِنَ الصَّبْرِ عَلَى حَدِّ السِّنَانِ
واجتَهِدْ أَلاَّ يَرَاكَ النَّاسُ مَبْسُوطَ البَنَانِ
فَعَسَى الرَّحْمَنُ يُغْنِي عَنْ فُلاَنٍ وَفُلانِ

وقال[1] :

أَيَا دَهْرُ ، أَيْنَ الْمُلُوكُ الَّذِينَ كَانُوا ، فَأَضْحَوْا كَأَنْ لَمْ يَكُونُوا
وَكَانَتْ قُصُورُهُمُ لاتُرَامُ فَتِلْكَ قُبُورُهُمُ لاَ تَبِينُ

قافيــة الهـاء

وقال :[2]

يَا نَائِمًا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا ، أَمَا آنَ انْتِبَاهُكْ
المَالُ لاَ يُغْنِيكَ فِي الأُخْرَى،وَلاَ يُنْجِيكَ جَاهُكْ

---

(١) النص من المرجع السابق ص ١٨٥ .
(٢) النص من الخريدة ١ : ١٨٥ .

باب العقائد

قافية البـاء

قال عمارة[1] : لم أشعر فى بعض الأيّام ، حتى جاءتنى من الملك الصّالح رقعة فيها أبيات بخطه ، ومعها ثلاثة أكياس ذهبا ، والأبيات قوله :

قُلْ لِلفَقِيهِ عُمَارةٍ : يا خَيْرَ مَنْ ... أضْحَى يُؤَلِّفُ خُطْبَةً وخِطَابَا

اِقْبَلْ نَصِيحَةَ مَنْ دَعَاكَ إلى الهُدَى ... قُلْ : حِطَّةٌ ، وَادْخُلْ إِلَيْنَا البَابَا

تَلْقَ الأَئِمَّةَ شَافِعِينَ ، وَلاَ تَجِدْ ... إلاَّ لَدَيْنَا سُنَّةً وَكِتَابَا

وَعَلَيَّ أَنْ يَعْلُو مَحَلُّكَ فِي الوَرَى ... وَإِذَا شَفَعْتَ إِلَيَّ كُنْتَ مُجَابَا

وَتعجّلِ الآلافَ ، وَهْيَ ثَلاَثَةٌ ... صِلَةٌ ، وحَقِّكَ ، لاَ تُعَدُّ ثَوَابَا

فأجبته مع رسوله بهذه الأبيات :

حَاشَاكَ مِنْ هَذَا الخِطابِ خِطَابَا ... يَا خَيْرَ أَمْلاَكِ الزَّمَانِ نِصَابَا[2]

لَـكِنْ إِذَا مَا أَفْسَدَتْ عُلَمَاؤُكُم ... مَعْمُورَ مُعْتَقَدِى ، وصَارَ خَرَابَا

وَدَعَوْتُمُ فِـكْرِى إِلَى أَقْوَالِـكُمْ ... مِنْ بَعْدِ ذَاكَ أَطَاعَـكُمْ وَأَجَابَا

فَاشْدُدْ يدَيْكَ على صَفَاءِ مَحَبَّتِى ... وَامْنُنْ عَلَيَّ ، وسُدَّ هَذَا البَابَا

---

(١) النكت العصرية ص ٤٥ .

(٢) النصاب : الأصل .

قافيـة الدّال

وقال(١) :

يا أُمّةً ، سَلَكتْ ضَلالاً بَيِّناً حتّى استوى إقرارُها وجُحُودُها

مِلْتم إلى أنّ المعاصِيَ لم تكُنْ إلاّ بتقديرِ الإلهِ وُجُودُها

لَوْ صَحّ ذَا كانَ الإلهُ بزَعْمِكُمْ مَنَعَ الشَّريعَةَ أنْ تُقامَ حُدُودُها

حَاشَا وكلاّ أنْ يكونَ إلهُنَا يَنْهَى عَنِ الفَحْشَاءِ، ثُمّ يُرِيدُها

(١) النص من خطط المقريزى ٤ : ٨٢ .

باب الفخر

قافية البـاء .

وَقال[1] :

تَوَالَتْ عَلَيْنَا فِي الكَتَائِبِ وَالكُتُبِ
بَشَائِرُ مِنْ شَرْقِ البِلاَدِ وِمِنْ غَرْب

بِشائِرُ تُهْـــدِي لِلمُوَالِي مَسَرَّةً   وَتُحدِثُ للبَاغِينَ رُعْباً على رُعْبِ
فَفِي كَبِدٍ مِنْ حَرِّهَا النَّارُ تَلْتَظِي   وَفِي كَبِدٍ أَحْلَى مِنَ البَارِدِ العذْبِ

ومنها :

جَعَلْنَا جِبَالَ القُدْسِ فِيهَا ، وقَد جَرَتْ
عَلَيْهَا عِتاقُ الخَيْلِ كالنَّفْنَفِ السُّهْبِ[2]

فقَد أَصْبَحَتْ أَوْعَارُهَا وحُزُونُها[3]
سُهُولاً تُوَطَّا لِلْفَوَارِسِ والرَّكْبِ

وَلَمَّا غَدَتْ لاَ مَاءَ فِي جَنَبَاتِهَا   صَبَبْنَا عَلَيْهَاوَابِلاًمِن دَمٍ سَكْبِ

(١) النص من الخريدة ١ : ١٧٨ .

(٢) النفنف : المفازة . والسهب : المستوى من الأرض .

(٣) الحزن : ما غلظ من الأرض .

وَجَادَتْ بِها سُحْبُ الدُّرُوعِ من العِدَا
نَجِيعاً[1] فَأَغْنَتْها الغَداةَ عَن السُّحْبِ

وأجْرَتْ بِحاراً مِنْهُ فَوْقَ جِبالِهَا
وَلَـكِنْ بِحارٌ لَيْسَ تَعْذُبُ لِلشُّرْبِ

فقد عَمَّها خِصْبٌ بِهِ من رُءوسِهِم
بِها ، وَلَـكِنْ خِصْبِ أَضَرُّ من الجَدْبِ

وقَد رَوَّعَتْهَا خَيْلُنَا قَبْلَ هَذِه
مِرَاراً ، وَكانَتْ قَبْلُ آمِنَةَ السِّرْبِ

وأَخْفَى صَهِيلُ الخَيْلِ أصْوَاتَ أهْلِهَا
فَعاقَتْ نَوَاقِيسَ الفَرَنْجَ عن الضَّرْبِ

ومنها :

وأَبْطَالِ حَرْبٍ مِن كُتَامَةَ[2] دَوَّخُوا
بِلاَدَ الأَعَادِي بِالْمُسَوَّمَةِ القُبِّ[3]

وَعَادُوا إِلَيْنَا بالرُّءوس عَلَى القَنَا
وأَغْنَاهُمُ كَسْبُ الثَّنَاء عَن الـكَسْبِ

(١) النجيع : الدم .
(٢) كتامة : قبيلة مغربية قدمت مع الفاطميين .
(٣) المسومة : المعلمة . والقب : الضوامر من الخيل .

ومنها :

وَإِنَّا بَنُورُزَّيك مَازَالَ جَارُنَا ... يَحلُّ لَدَيْنَا بِالكَرَامَةِ والخِصْبِ

وَنَفْتِكُ بالأَمْوَالِ فى السِّلْمِ دَائماً ... كَمَا نَحْنُ بِالأَعْدَاء نَفْتِكُ فِي الحَرب

قافية الدّال

وقال[1] :

أَبِى اللهُ إِلاَّ أَنْ يَكُونَ مُؤَيَّدا ... مَدَى الدَّهْرِ، مَنْصُورَ اليَدَيْنِ عَلَى العِدَا

وَكَمْ جَاهِلٍ قَدْ زَادَهُ الحِلْمُ عِزَّةً ... عَلَى غَيْرِه ، لَمَّا فَسَحْتُ لَهُ المَدَى

فَأَوْرَدْتُه مِنْ رَاحَتِى مَوْرِدَ النَّدَى ... وَلَمَّا أَسَرَّ الغَدْرَ أَوْرَدْتُهُ الرَّدَى

وَهَاجَرَ ، فاسْتَدْرَجْتُهُ ، وَدفَعْتُه ... بِحِلْمِى؛ أَنَاةً ، وَانْتِظَاراً بِهِ غَدَا

عَسَى هُوَ أَنْ يَصْحُو مِنْ الجَهْلِ ، أَوْ يُرَى ... عَلَيْهِ الحُسَامُ المَشْرَفِىُّ مُعَرْبِدَا

ومنها فى وصف حسام :

فَعَاجَلَهُ مُسْتَحْكِمُ الرَّأْيِ قَدْ غَدَا ... لِقَهْرِ الأَعَادِي فِي الحُرُوبِ مُؤَيَّداً

رَمَيْتُ بِهِ سَهْماً مُصِيباً ، وَإِنَّهُ ... لَدَى الحَرْبِ مَازَالَ القَوِيمَ المُسَدَّدا

هُوَ الأَسَدُ الوَرْدُ الَّذِى عَادَ سَبْقُه ... إِلَيْنَا مِنَ الضَّرْبِ الدِّرَاكِ للوَرَّدَا

---

(١) النص من الخريدة ١ : ١٧٨ .

فَلاَ يَغتَرِرْ بِى بَعْدَهَا ذو جَهَالَةٍ
فَلَيْثُ الشرَى يُخْشَى ، وإنْ كانَ مُلبِدا

قافية اللاّم

وقال[1] :

تَجَنَّبَ سَمْعِى ما يَقُول العَوَاذِلُ وأَصْبَحَ لِى شغْلٌ مِن الغَزْوِ شاغِلُ

---

(١) النص من الـكامل فى التاريخ ١١ : ١٢٣ .

باب السياسة

قافية الدّال

عهد الملك الصالح عند موته إلى ابنه : رُزِّيك ألاّ يتعرض لشاور ، وقال له : لا تزله من ولايته ؛ فإنه أسلم لك . و يقال : إنّه أنشد أبياتاً ، منها :

فَإِذَا تَبَدَّدَ شَمْلُ عِقْدِكُمَا ... لاَ تَأْمَنَا مِنْ شاورِ السّعدى[1]

قافية الميم

كانت وحشة بين نور الدّين محمود بن زنكى صاحب الشّام ، و بين قلج أرسلان بن مسعود صاحب الرّوم ، أدّت إلى الحرب والتضاغن ، فلما بلغ خبرها إلى مصر ، كتب الصالح بن رُزِّيك وزير صاحب مصر إلى قلج أرسلان ينهاه عن ذلك ، وكتب فيه شعراً[2] :

نَقُولُ ، ولكِنْ أَيْنَ مَنْ يَتَفَهَّمُ ... وَيَعْلَمُ وَجْهَ الرَّأْيِ ، والرَّأْيُ مُبْهَمُ

وما كُلُّ مَنْ قَاسَ الأُمُورِ وسَاسَهَا ... يُوَفَّقُ لِلأَمْرِ الَّذى هُوَ أَحْزَمُ

وَمَا أَحَدٌ فِي المُلْكِ يَبْقَى مُخَلَّداً ... وَمَا أَحَدٌ مِمَّا قَضَى اللهُ يَسْلَمُ

أَمِنْ بَعْدِ مَاذَاقَ العِدَاطَعْمَ حَرْبِكُمْ ... بِفِيهِمْ ، وَكَانَتْ وهْىَ صَابٌ وعَلْقَمُ

---

(١) النص من الروضتين ١ : ١٦ .

(٢) النص من الكامل لابن الأثير ١١ : ١٢٤ .

وَجَعتُم إلى حُكْمِ التَّنافسِ بَيْنَكم
وَفِيكم من الشَّحْناء نارٌ تَضَرَّمُ

ما عِنْدَكُمْ مَنْ يَتَّقِي اللهَ وَحْدَهُ أَما فِي رَعايَاكُمْ مِنَ النَّاسِ مُسْلِمُ

تَعالَوْا ، لَعلَّ اللهَ يَنْصُرُ دِينَهُ إِذا ما نَصَرْنا الدِّينَ نَحْنُ وأَنْتُمُ

وَنَنْهضُ نَحْوَ الكافِرِينَ بِعزْمَةٍ بِأمْثالِها تُحْوَى البِلادُ وتُقْسَمُ

باب المدح

قافية القاف

أورد عماد الدين[1] قصيدة نظمها ابن رُزِّيك ، يردُّ بها على قصيدة أخرى ، يمدحه بها الفقيه الشاعر : نصر بن عبد الرحمن ، وكان من أهل الإسكندرية ، ولقيه العماد فى بغداد سنة ٥٦٠ هـ :

أَهْدَى لِيَ القَاضِي الفَقِيهُ عَرَائِساً ... فِيها بَدِيعُ الوَشْيِ مِنْ تَنْمِيقِهِ

فَأَجَلْتُ طَرْفِي فى بَدِيعِ رِيَاضِهِ ... مِنْ وَرْدِهِ ، وَبَهارِهِ ، وشَقِيقِه

فَـكَأَنَّمَا اجْتَمَعَ الأَحِبَّةُ ، فَانْبَرَتْ ... يَدُ عَاشِقٍ تَهْوِى إِلَى مَعْشُوقِه

نَزَّهْتُ فِي بُسْتَانِ نَظْمِكَ خَاطِرِى ... فَحَظِيتُ مِن زَهْرِ الرُّبَا بِأَنِيقِه

وَأَنَا أَرَى تَقْدِيمَ حَاجَةِ صَاحِبِي ... مِنْ دُونِ حَاجَاتِي أَقَلَّ حُقُوقِهِ

وَكَذَا الـكَرِيمُ : فَمُهْمِلٌ لِحُقُوقِهِ ... لاَ مُهْمِلٌ أَبَداً حُقُوقَ صَدِيقِهِ

---

(١) خريدة القصر المصورة ورقة ٦٩ (١) .

باب
بينه وبين أسامة*

قافية الباء

(١) كتب أسامة بن منقذ فى صدر كتابٍ شعرا أوله[١]:

وما سَكنتْ نفسى إلى الصبرِ عنكم
ولا رضيت بُعدَ الدّيار من القرب

فلما وقف عليه الملك الصالح أجاب عنه بهذه القصيدة[٢]:

مِنَ اليَوْمِ لاَ أغْتَرُّ مَاعِشْتُ بالحُبِّ
وَلاَ أطْلُبُ العُتْبَى[٣] مِنَ الخِلِّ بِالعَتْبِ

ولاَ أرْتَضِى بِالبُعْدِ مِنْ ذِى مَوَدَّةٍ وَأقْنَعُ مِنْهُ بِالرَّسَائِلِ والكُتْبِ

(*) هو أسامة بن منقذ ، أحد كبار رجال عصره وشعرائه ، وأسرته أمراء قلعة شيزر بالشام ، قدم إلى مصر .واتصل بوزرائها ، ولما حدث مقتل الفائز خرج من مصر ، مع عباس الصنهاجى الوزير الذى قتل ابنه الخليفة الفائز الفاطمى . وكان أسامة شديد الصلة بطلائع ، كما يدل عليه ما دار بينهما من شعر . وتوفى أسامة سنة ٥٨٤ هـ .

(١) الأبيات بديوان أسامة ص ١١٢ .

(٢) النص من ديوان أسامة ص ١١٢ .

(٣) العتبى : الرضا .

وَلاَ سِيَّمَا إِنْ قَالَ لِى مُتَصَنِّعاً :

فَفَارَقَكُمْ جِسْمِى ، وَجَاوَرَكُمْ قَلْبِى[1]

عَلَى أَنَّنِى قَدْ قُلْتُ حِينَ أَجَبْتُهُ بِلاَ حِشْمَةٍ : مَا أَشْبَهَ العُذْرَ بِالذَّنْبِ

أَخِلاَّىَ ، لَوْ رُمْتُمْ دُنُوًّا لَمَا أَبَى

سُرَى العِيسِ[2] ، بَلْ رَكْضُ المُطَهَّمَةِ القُبِّ[3]

وَلَكِنَّكُمْ بِعْتُمْ وَفَاءً بِغَدْرَةٍ غَدَاةَ اشْتَرَيْتُمْ وَحْشَةَ البُعْدِ بِالقُرْبِ

عَلَيْكُمْ سَلاَمُ اللهِ ، إِنَّ بِعَادَكُمْ لَأَعْظَمُ مَا قَدْ كَانَ مِنْ ذَلِكَ الخَطْبِ

وَلَوْ أَنَّنَا كُنَّا ظَنَنَّاهُ لَمْ نَكُنْ

نُظَاهِرُ دُونَ النَّاسِ عَبَّاسَ[4] بِالحَرْبِ

عَلَى أَنَّهُ قَدْ نَالَ بِالغَدْرِ مِنْ بَنِى نَبِىِّ الهُدَى مَالَمْ تَنَلْهُ بَنُو حَرْبِ[5]

وَهَلْ نَالَ مِنهُم آلُ حَرْبٍ وَغَيْرُهُمْ

مِنَ النَّاسِ فَوْقَ القَتْلِ وَالسَّبْىِ وَالنَّهْبِ

غَدَا وَالغًا[6] كَالكَلْبِ ظُلْمًا ، وَحِزْبُهُ

دِمَاءَهُمُ ، لاَ حَاطَهُ اللهُ مِن حِزْبِ

---

(١) شطر من أبيات أسامة .

(٢) العيس : الإبل البيض ، يخالط بياضها شقرة .

(٣) المطهمة : البارعة الجمال . والقب : الخيل المرتفعة .

(٤) هو الوزير عباس الصنهاجى . راجع المقدمة .

(٥) هم بنو أمية .

(٦) ولغ الكلاب فى الإناء : شرب ما فيه بأطراف لسانه .

وَيَا لَيْتَهُ ، لَوْ كَانَ فيه مِنَ الوَفَا ... لِمَالِكِهِ بَعْضُ الَّذِى هُوَ فِي الكَلْبِ

وَحَاشَاكُمُ ، مَا خُنْتُمُ العَهْدَ مِثْلَهُ

وَلاَ لَكُمُ فِيماَ جرَى مِنْهُ مِنْ ذَنْبِ

وَمِنْ مِثْلِ مَا قَدْ نَالَكُمْ مِنْ دُنُوِّهِ ... يُحَاذَرُ أَنْ تَدْنُو الصِّحَاحُ مِنَ الجُرْبِ

وما رَوْضَةٌ غنَّاء هَبَّ نَسِيمُهَا ... عَلِيلاً ، فَلَمْ يُوقِظْ بَهَا نَائِمَ التُّرْبِ

سقَاهَا الحَيَا[1] مِن آخِرِ اللَّيْلِ مُزْنَةً ... كَأَيْمَانِنَا ، لَمَّا هَمَتْ بِدَمٍ سَكْبِ

فأضْحَتْ ثُغُورُ الاقْحُوَانِ صَقِيلَةً

تُضَاحِكُ فِي أَرْجَائِهَا أَوجُهَ الشَّرْبِ[2]

بِأحسنَ ، مَجْدَ الدِّينِ ، مِمَّا تَصرَّفَتْ

بَنَانُكَ فِي تَفْوِيفِ أَبْرَادِهِ القُشْبِ[3]

وما هُوَ إلاَّ الشَّمْسُ أَضْحَى يَزُورُنَا

بِمَسْرَاهُ من شَرْقِ البِلاَدِ إلى الغَرْبِ

أَأَحْبَابَنَا ، يَاطَالَ مَا كَانَ قُرْبُكُمْ

إِلَيَّ منَ الدُّنْيَا وَنِعْمَتِهَا حَسْبي

وكُنْتُمْ عَلَى قَلْبِي إِذَا مَا لَقِيتُكُمْ

عَلَى ظَمَأٍ أَشْهَى منَ البَارِدِ العذْبِ

---

(١) الحيا : المطر . والمزنة : القطعة من السحاب .

(٢) الشرب : جمع شارب . (٣) القشب : جمع قشيب ، وهو الجديد .

تَرَكْتُمْ مُدُودَ النِّيلِ ، يُرْوَى بِهَا الظَّمَا
وَيُخْلِفُهَا مِن جُودِنَا النَّيْلُ فِى الجَدْبِ

هُوَ الآيَةُ العُظْمَى الَّتِى دَلَّ حُكْمُهَا
بِأَوْطَانِنَا أَنَّ العِنَايَةَ لِلرَّبِّ

بِحَيْثِ الأَمَانِى ، لَيْسَ تُخْلِفُ سُحْبُهَا
بِسُقْيَا إِذَا مَا أَخْلَفَتْ دِرَّةُ السُّحْبِ[1]

وَمَا اعْتَضْتُمُ مِنْهُمْ غَدَاةَ نُقِلْتُمُ
بِكُرْهٍ إِلَى جَدْبِ البِلادِ مِنَ الخِصْبِ

وَإِنِّى عَلَى مَا قَدْ عَهِدْتُمْ مُحَافِظٌ
عَلَى الوُدِّ مِنكُمْ فِى بِعَادٍ وَفِى قُرْبِ

أَحِنُّ إِلَى أَخْلاَقِكُم ، وَأَعُدُّكُمْ
بِلاَ مِرْيَةٍ[2] ، مِن جُمْلَةِ الأَهْلِ لاَ الصَّحْبِ

أُسَامَةُ لِى مِنهُ اعْتِزَامُ أُسَامَةٍ[3]
وَمُرْهَفُ فِيهِ هَزَّةُ المُرْهَفِ العَضْبِ[4]

---

(١) الدرة : سيلان ماء السحب .

(٢) المرية : الشك .

(٣) أسامة فى أول البيت هو ابن منقذ . ولفظ أسامة بعده يريد به الأسد .

(٤) مرهف فى أول الشطر هو ابن أسامة . والمرهف بعده : السيف الدقيق . والعضب : القاطع .

فَإِنْ تَبْعُدُوا عَنَّا فَفِي حِفْظِ رَبِّكم
وإِن تقرُبُوا منَّا ففِي المَنزِلِ الرَّحْبِ

وكتب أسامة إلى الملك الصّالح قصيدة أوّلها :

كفَّ عنِّي، وَاشٍ، وأغْضَى رَقِيبُ ونَهَانِي عَنِ التَّصَابِي المَشِيبُ

فـكتب إليه الملك الصّالح[1] :

بِأَبِي شَخْصُكَ الَّذِي لاَ يَغِيبُ عَنْ عِيَانِي ، وهوَ البَعِيدُ القَرِيبُ

يا مُقِيماً فى الصَّدرِ ، قدْ خِفْتُ أن يُؤْذِيكَ لِلقَلْبِ حُرْقَةٌ ووَجِيبُ

وَأَرَى الدَّمْعَ ليسَ يُطْفِئُ حَرَّ الوَجْدِ ، إِنْ جَادَ غَيْثُهُ المَسْكوبُ

كُلَّ يَوْمٍ لِنارِ شَوْقِيَ ، مَا بينَ ضُـــلوعِي ، بِمَاءِ جَفْنِي ، لَهِيبُ

وكَذَا الصَّبُّ: يَحْسُنُ الجَوْرُ فِي الحُبِّ لَدَيْهِ ، وَيَعْذُبُ التَّعْذِيبُ

لاَ يَهَابِ الأُسُودَ فِي حَوْمَةِ الحَرْبِ ، وَيَقْتَادُهُ الغَزَالُ الرَّبِيبُ

وَيُجازِى عَنَ النِّفَارِ مِن الأَحْبَابِ بِالقرْبِ ، إِنَّ ذَا لَعَجِيبُ

يامَلِيحَ القَوَامِ ، عَطْفاً ، فَقَدْ يُعْطَفُ من لِينِهِ القَضِيبُ الرَّطِيبُ

لكَ قَلبٌ أقْسَى عَلَيْنَا مِن الصَّخْرِ ، وَمَا هَـكَذَا تَـكونُ القلوبُ

---

(١) النص من ديوان أسامة ، وقد ورد مجزأ فى الصفحات ٧ ، ١٥٣ ، ١٦٤ ، ٢٩٦ ورد معظمه فى الروضتين ١ : ١٠٦ ، ١١٨ .

وَبِحُكْمِ العَدُوِّ تَحْكُمُ أَلْحَاظُكَ ، فِي قَلْبِنَا ، وَأَنْتَ الحَبِيبُ
أَنتَ عِنْدِي مِثْلُ ابنِ سِبْرَاي[1] ؛ مِنهُ الدَّاءُ ، يُرْدِي النُّفُوسَ ، وهوَ الطَّبِيبُ
مالِدَمْعِي يُسْقَى بِهِ وَرْدُ خَدَّيْكَ ، وَمَرْعَاهُ فَوْقَ خَدِّي جَدِيبُ
وَلِأَهْلِ الصَّفَاءِ ، مَا مِنْهُمُ الآنَ خَلِيلٌ ، إِذَا دَعَوْتُ ، يُجِيبُ
مَا ظَنَنَّا نُفُوسَهُمْ بِانْصِدَاعِ الشَّمْلِ يَوْماً ، وَلاَ الفِرَاقِ تَطِيبُ
يَا أَخِلاَّيَ بِالشَّآمِ ، لَئِنْ[2] غِبْتُمْ ، فَشَوْقِي إِلَيْكُمُ لاَ يَغِيبُ
غَصَبَتْنَا الأَيَّامُ قُرْبَكُمُ مِنَّا ، وَلاَ بُدَّ أَنْ تُرَدَّ الغُصُوبُ
وَلَكُمْ ، إِنْ نَشِطْتُمُ ، عِنْدَنَا الإِكْرَامُ ، والرِّفْدُ ، والمَحَلُّ الخَصِيبُ
قَدْ عَلِمْتُمْ بِأَنَّ غَيْثَ أَيَادِينَا عَلَى النَّاسِ بِالنُّضَارِ[3] سَكُوبُ
وبِنَا يُدْرِكُ المُؤَمِّلُ مَا يَرْجُوهُ قِدْماً ، وَيُنْقَذُ المَكْرُوبُ !
نَحنُ كالسُّحْبِ ، بِالبَوَارِقِ ، والرَّعْدِ ، لَدَيْنَا التَّرْغِيبُ ، والتَّرْهِيبُ
تَارَةً نُسْعِرُ الحُرُوبَ عَلَى النَّاسِ ، وَطَوْراً بِالمَكْرُمَاتِ نَصُوبُ[4]
كَرِهَ الشَّامُ أَهْلَهُ ؛ فَهوَ مَخْفُوقٌ بِأَلاَّ يُقِيمَ فِيهِ لَبِيبُ

---

(١) ابن سبراى : طبيب متقدم فى صناعته كان يتولى خدمة الملك الصالح ، وكان فى أخلاقه بعض الشراسة والحدة ، فلذلك كان الملك الصالح يعبث به ويداعبه ، مستدعيا لحدته ونفرته ، مع علمه وفضله . (اهـ . من هامش ديوان أسامة) .

(٢) فى الروضتين : إن .

(٣) النضار : الذهب الخالص .

(٤) الصوب : الانصباب .

إِنْ تجلَّتْ عَنْهُ الحُرُوبُ قَلِيلاً خَلَفَتْهَا زَلاَزِلٌ[1] وخُطُوبُ
رقَصَتْ أَرْضُهُ عَشِيَّةَ غَنَّى الرَّعْدُ فى الجَوِّ ، والكَرِيمُ طَرُوبُ
وتَثَنَّتْ حِيطَانُه ، فَأَمَالَتْهَا شَمَالٌ بِزَمْرِهَا وَجَنُوبُ
لا هُبُوبٌ لِنَائِم مِن أَمَانِيهِ ، ولِلعَاصِفَاتِ فِيهَا هُبُوبُ
وَأَرَى البَرْقَ شَامِتاً ضَاحِكَ السِّنِّ ، والجَوُّ بِالغُيُومِ قَطُوبُ
ذَكَرُوا أَنَّهُ تَذُوبُ بِهِ الشُّحْبُ ، فَمَا لِلصُّخُورِ أَيْضاً تَذُوبُ
أَبِذَنْبٍ أَصَابَهَا قَدَرُ اللهِ ، فَلِلأَرْضِ كَالأَنَامِ ذُنُوبُ
إِنْ ظَنِّى ، وَالظَّنُّ مِثْلُ سِهَامِ الرَّمْيِ : مِنهَا المُخْطِئُ ، ومِنْهَا المُصِيبُ
أَنَّ هَذَا لِأَنْ غَدَتْ سَاحَةُ القدْس وَمَا لِلإِسْلاَمِ فِيهَا نَصِيبُ
مَنْزِلُ الوَحْيِ قَبْلَ بَعْثِ رَسُولِ اللهِ ، فَهْوَ المَحْجُوجُ والمَحْجُوبُ
نَزَلَتْ وَسْطَهُ الخَنَازِيرُ والخَمْرُ ، وَبَارَى النَّاقُوسَ فيها الصَّلِيبُ
لَوْ رَآهُ المَسِيحُ لَمْ يَرْضَ فِعْلاً زَعَمُوا[2] أَنَّهُ لَهُ مَنْسُوبُ
أَبْعَدَ النَّاسِ عَنْ عِبَادَةِ رَبِّ النَّاسِ قَوْمٌ إِلَهُهُمْ مَصْلُوبُ
لَهْفَ نَفْسِي عَلَى دِيَارٍ من السُّكَّانِ أَقْوَتْ[3] ، فَلَيْسَ فيها عَرِيبُ[4]

(١) يشير الى الزلازل العنيفة التى حدثت بالشام يومئذ ، وأتت على شيزر ومن فيها من أهل أسامة .
(٢) فى الأصل والروضتين : ذكروا . وما أثبتنا من هامش الديوان .
(٣) أقوت الدار : خلت .
(٤) ما فيها عريب : أحد .

وَلَكَمْ حَلَّهَا فَأَنْسَتْهُ أَوْ طَانَ صِبَاهُ ، وَالأَهْلَ يَوْماً ، غَرِيبُ
فَاحْتَسِبْ مَا أَصَابَ قَوْمَكَ ، مَجْدَ الدِّين ، واصبِر ، فَالحَادِثَاتُ ضُرُوبُ
هَكَذَا الدَّهْرُ : حُكْمُهُ الجَوْرُ وَالقَصدُ ، وَفِيهِ المَكْرُوهُ والمحبُوبُ
إن تخصَّصْكُمْ نَوَائِبُ مَا زَالَتْ لَكم دونَ مَنْ سِوَاكُمْ تَنُوبُ
فَكَذَاكَ القَنَاةُ : يُكْسَرُ يَوْمَ الرَّوْعِ مِنْهَا صَدْرٌ ، وتَبقَى كُعُوبُ
ولَعَمْرِى إنَّ المُناصِحَ فى الدِّينِ[1] عَلَى اللهِ أَجْرُهُ مَحْسُوبُ
وجِهادُ العَدُوِّ بالفِعْلِ والقَوْلِ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ مَكْتُوبُ
ولكَ الرُّتْبَةُ العَلِيَّةُ فِي الأَمْرَيْن ، مُذ كُنْتَ ، إِذْ تَشِبُّ الحُرُوبُ
أنتَ فيهَا الشُّجَاعُ ، مالَكَ فى الطَّعْنِ ، ولاَ فِي الضِّرابِ يوماً ، ضَرِيبُ
وإِذَا مَا حَرَّضْتَ[2] فالشَّاعِرُ المُفْلِقُ فيماَ تقُولُه والخَطِيبُ
وإذَا مَا أَشَرْتَ فالحَزْمُ لاَ يُنكِرُ أَنَّ التَّدبِيرَ مِنْكَ مُصِيبُ
لَكَ رَأْىٌ يَقظَانُ[3] ، إنْ ضَعُفَ الرَّأْىُ ، عَلَى حَاِلِى الصَّلِيبِ صَلِيبُ[4]
فَانْهَضِ الآنَ مُسرِعاً ، فبِأَمْثَالِكَ مَا زَالَ يُدْرَكُ المَطْلوبُ
والْقَ عنَّا رِسَالَةً عِنْدَ نُورِ الدِّينِ ، مَافى إِلْقَائِهَا مَا يَرِيبُ

(١) هذه رواية الروضتين ، وفى ديوان أسامة : للدين .

(٢) فى الروضتين : قرضت .

(٣) هذه رواية الروضتين ، وفى الديوان : مذ كان .

(٤) الصليب : الشديد .

حَوْلَ لَهُ دَائِمٌ مُلْكُهُ ، وَعَلَيْهِ مِنْ لِبَاسِ الإِقْبَالِ بُرْدٌ قَشِيبُ :

أَيُّهَا العَادِلُ الَّذِي هُوَ لِلدِّينِ شَبَابٌ ، وَلِلحُرُوبِ شَبِيبُ[1]

وَالَّذِي لَمْ يَزَلْ قَدِيمًا عَنِ الإِسْلَامِ بِالعَزْمِ مِنْهُ تُجْلَى الـكُرُوبُ

وَغَدَا مِنْهُ لِلْفِرَنْجِ إِذَا لَاقَوْهُ يَوْمٌ مِنَ الزَّمَانِ عَصِيبُ[2]

إِنْ يَرُمْ[3] نَزْفَ حِقْدِهِمْ فَلأَشْطَانِ[4] قَنَاهُ فِي كُلِّ قَلْبٍ قَلِيبُ[5]

غَيْرُنَا مَنْ يَقُولُ مَا لَيْسَ يُمْضِيهِ بِفِعْلٍ ، وَغَيْرُكَ المَكْذُوبُ

قَدْ كَتَبْنَا إِلَيْكَ ، فَأَوْضِحْ[6] لَنَا الآنَ بِمَاذَا عَنِ الـكِتَابِ تُجِيبُ

قَصْدُنَا أَنْ يَكُونَ مِنَّا وَمِنْكُمْ أَجَلٌ فِي مَسِيرِنَا مَضْرُوبُ

فَلَدَيْنَا مِنَ العَسَاكِرِ مَا ضَاقَ بِأَدْنَاهُمُ الفَضَاءُ الرَّحِيبُ

وَعَلَيْنَا أَنْ يَسْتَهِلَّ[7] عَلَى الشَّامِ ، مَكَانَ الغُيُوثِ ، مَالٌ صَبِيبُ

أَوْ تَرَاهَا مِثْلَ العَرُوسِ : ثَرَاهَا كُلُّهُ مِنْ دَمِ العِدَا مَخْضُوبُ

---

(١) يريد شبيب بن يزيد الشيبانى أحد كبار الثائرين على بنى أمية ، وكان بطلا فى الحرب . قال الجاحظ فى حقه : كان يصيح فى جنبات الجيش إذا أتاه فلا يلوى أحد على أحد . توفى سنة ٧٧ هـ .

(٢) العصيب : الشديد .

(٣) هذه رواية الروضتين . وفى الديوان : ترم .

(٤) الشطن محركة : الحبل الطويل .

(٥) القليب : البئر .

(٦) فى الروضتين . ماوضح الآن .

(٧) استهل المطر : اشتد انصبابه .

لِطَنِينِ السُّيُوفِ فِي فَلَقِ الصُّبحِ عَلَى هَامِ أَهْلِهَا تَطْرِيبُ
وِلجَمْعِ الحُشُودِ مِن كُلِّ حِصْنٍ سَلَبٌ مُهْمَلٌ لَهمْ وَنُهُوبُ
وِبحَوْلِ الإِلَهِ ذَاكَ ، وَمَنْ غَالَبَ رَبِّي فَإِنَّهُ مَغْلوبُ

قافية الرّاء

وكتب إليه الملكُ الصّالحُ قصيدة منها[1] :

أَبَى اللهُ إلاَّ أَنْ يَدِينَ[2] لنَا الدَّهْرُ
ويخـــدُمَنَا فى مُلْـكِنا العزُّ والنَّصْر
عَلِمْنا بأَنَّ المَالَ تفْنَى أُلوفــه
ويَبْقَى لَنَا مِن بَعْده الأَجْرُ والذِّكْرُ
خَلَطنَا النَّدَى بالبَأْسِ ، حَتَّى كَأَنَّنَا
سَحَابٌ لَدَيْه البَرْقُ والرَّعْدُ والقَطرُ

---

(١) وردت هذه الأبيات فى الـكامل لابن الأثير ١١ : ١٢٣ والثلاثة الأولى وردت فى البداية والنهاية ١٢ : ٢٤٤ . وورد البيت الأول فى ديوان أسامة ص ٢٠١ ، وقال صاحب الديوان بعد أن أورده : وهى طويلة ، يذكر فيها وقائعه وسراياه إلى الفرنج ؛ وتسييره الجيوش ، وأسماء مقدميها ، ويصف نجدتهم ، فوقف عليها الملك العادل رحمه الله، وخرج عالى أمره إلى الأمير مجد الدين بالإجابة عنها ، بمان وقت الإشارة إليها ، فقال هذه القصيدة ، وذكر فيها بعض الفتوحات :

أبى الله إلا أن يكون لنا الأمر لتحيا بنا الدنيا ويفتخر العصر

والقصيدة مطولة جدا بديوان أسامة ص ٢٠١ .

(٢) هذه رواية ديوان أسامة وفى غيره : يدوم .

تَرَانا[1] إذَا رُحْنَا إلى الحرْبِ مَرّةً
قَرِينَا ، ومِنْ أضْيَافِنَا الذِّئْبُ والنَّسْرُ
كَمَا أنّنَا فى السِّلْمِ نَبْذُلُ جُودَنا
ويَرْتَعُ فِى إنْعامِنَا العَبْدُ والحُرُّ

قافية الطّاء

وقال أسامة فى الملك الصالح قصيدة[2] مطلعها :

أجِيرَةَ قَلْبِي ، إنْ تَدَانَوْا ، وإنْ شَطُّوا
ومُنْيَةَ نَفْسِي ، أنْصَفُونِي ، أو اشْتَطُّوا[3]

فأجابه محرّضاً على الجهاد[4] :

هِيَ البَدْرُ ، لَكِنّ الثُّرَيّا لَهَا قُرْطُ
ومِنْ أنْجُمِ الجَوْزَاءِ فِي نَحْرِها سِمْطُ[5]
مَشَتْ وَعَلَيْهَا لِلغَمَامِ ظَلَائِلٌ
تُظِلُّ ، ومِنْ نَسْجِ الرَّبِيعِ لَهَا بُسْطُ

(١) فى الأصل : قرانا . تحريف .
(٢) القصيدة بديوان أسامة ص ٧٨ ، ١٧٤ ، ٢١١ .
(٣) شط : بعد . واشتط : جار .
(٤) النص من ديوان أسامة ص ١٧٥ ، وبعضه فى الخريدة ١ : ١٧٦ ، والروضتين ١ : ١١٩ ، وثلاثة أبيات منه فى عقد الجمان القسم الثانى ، ومرآة الزمان ج ٨ .
(٥) السمط : قلادة أطول من المخنقة .

تَوَمُّ صَرِيعاً فى الرِّحَالِ ، كَأَنَّهُ
مِن السُّقْمِ ، والأَيْدِى تُقَلِّبُهُ ، خَطُّ

فما اخضَرَّ ثَوْبُ[1] الأرضِ إلاَّ لِأَنَّها
عليهِ ، إذَ زَارَتْ ، بِأَقْدَامِهَا تَخْطُو

وَلاَ طَابَ نَشْرُ الرَّوْضِ إلاَّ لِأَنَّه
يُجَرُّ عَلَيهِ مِن جَلاَبِيبِهَا مِرْطُ[2]

وَلاَ طَارَ ذِكْرُ الظَّبْيِ إلاَّ وقَد بَدَا[3]
يَصُدُّ كَمَا صَدَّتْ ، ويَعْطُو كمَا تَعْطُو[4]

مِنَ البِيضِ ، مثلَ الصُّبحِ ، ماَ للظَّلاَمِ فِى
مَحَاسِنِهَا ، لولاَ ذَوَائِبُهَا ، قِسْطُ

إلى العَرَبِ الأَمْحَاضِ يُعْزَى قَبِيلُها
وقَدْ ضَمَّهَا فى الحُسْنِ معْ يُوسُفٍ سِبْطُ[5]

ولما غدَتْ كالعَاجِ ، زُيِّنَ صَدْرُهَا
بُحقَّين مِنْهُ ، قَد أَجَادَهُمَا الخَرْطُ

(١) فى العقد والمرآة : ثوب .
(٢) المرط بالكسر : كساء من صوف أو خز .
(٣) هذه رواية الخريدة ، وفى ديوان أسامة: لأنه .
(٤) العطو : رفع الرأس واليدين .
(٥) هذه رواية ديوان أسامة ، وفى الخريدة : سمط .

وأُرْسِلَ فَوْقَ الخَدِّ صُدْغٌ مُكَلَّلٌ
كَمَا انْسَابَ فى الرَّوْضَاتِ حَيَّاتُها الرُّقْطُ[1]

ذَوَائِبُ زَارَ الخَصْرَ مِنْهُنَّ فَاحِمٌ
تَحَدَّرَ ، لا جَعْدُ النَّبَاتِ ، وَلا سَبْطُ

يُنَافِي سَنَا الكَافُورِ ، إِنْ مُشِّطَتْ بِهِ
ويُخْفِي سَوَادَ المِسْكِ ، فَهوَ لَهَا خِلْطُ

ولمَّا نَأَتْ عَنَّا ، عَلَى كُلِّ حالَةٍ .
تَسَاوَى الرِّضَا والسُّخْطُ ، والقُرْبُ والشَّحْطُ[2]

فَأَذْكَرَنَا ذَاكَ البِعَادُ مَعَاشِراً
نَأَوْا ، فَكَأَنَّا مَا لَقِينَاهُمُ قَطُّ

وأَلقَوْا ، وَقَدْ شَطُّوا ، فُؤَادَ مُحِبِّهِمْ
إلى بَحْرِ شَوْقٍ مَا لِلُجَّتِهِ شَطٌ

وليسَ تَشُقُّ السُّفْنُ أَمْوَاجَه ، ولاَ
بِسَاحِلِهِ لِلعِيسِ[3] رَفْعٌ ولاَ حَطٌ

---

(١) الرقطة : سواد يشوبه نقط بياض أو عكسه .

(٢) الشحط : البعد .

(٣) العيس : الإبل البيض يخالط بياضها شقرة .

أأحبابنَا بالشام ، عِفْتُم جِوارنَا
فَجاوَرَكُمْ في أرضِهَا الخَوْفُ والقَحْطُ
وَمَا كانَ بَعْد النِّيلِ ، والنِّيلُ زَاخِرٌ
بِمِصْرَ لِيُغْنِي عَنكُمُ ذَلكَ الخُطُّ[1]
وقَدْ عِشْتُمُ فيهَا زَمَانًا ، فَمَا اعْتَرَى
رِضَاكُمْ بِهَا ، لولاَ تَخَوُّفُكُمْ ، سُخْطُ
وكُنتُمْ لَنَا دُونَ الأقَارِبِ أُسْرَةً
ونحن لكُمْ مِن دُونِ رَهْطِكُمُ رَهْطُ
وإنّا أُنَاسٌ ، لَيْسَ يَبْرَحُ جَارُنا
يُحَكَّمُ فِي الأموَالِ مِنَّا ، فَيَشْتَطُّ
ويَمْتَاحُنَا زُوَّارُنَا ، فَكَأنَّمَا
غَدَا لَهُمُ شرطٌ عَلَيْنَا ، ولاَ شَرْطُ
ويُصْبِحُ بسطُ الكفِّ بِالمالِ عِندَنَا
وكُلُّ مَلِيكٍ عِندَهُ القَبْضُ والبَسْطُ
وتَخْرِقُ شرقَ الأرضِ والغَرْبَ خَيْلُنَا
عليهَا الشَّبابُ المُرْدُ ، والجِلَّةُ الشُّمْطُ[2]

---

(١) الخط بالضم : موضع الحى .

(٢) الشمط : بياض شعر الرأس يخالط سواده ، والشمط فى الرجل : بياض اللحية والجلة : جم جليل .

وظلماء الشُّهبِ الدَّرَارِى إذا سَرَتْ
هناك مع السَّارين فى جُنْحِها خَبْطُ

كَمَا أوَّلُ القَدْحَيْنِ سَقطٌ يُسَلُّ مِن
حَشَاهَا ، كَذَاكَ البَرْقُ فِى جَوِّهَا سَقْطُ[١]

سَلَلْنَا بِها بِيضَ السُّيُوفِ[٢] ، فَلاَحَ فى
شَبابِ الدُّجَى لَمَّا بَدَا لَمُهَا وَخْطُ

سُيوفٌ لَهَا فِى كلِّ دِرْعٍ وَجُنَّةٍ[٣]
إذَا مَا اعتَلَتْ قَدٌّ ، أو اعْتَرَضَتْ قَطٌّ[٤]

ذَخَرْنَا سُطَاهَا لِلفِرَنْجِ ، لِأَنَّها
بِهِمْ دُونَ أهْلِ الأرْضِ أجْدَرُ أن تَسْطُو

لَهُمْ قِسْطُهُمْ فى الحَرْبِ منها ، ومَالَها
عليهم لَدَى الهَيْجَاء عَدْلٌ ولا قَسْطُ[٥]

وقَدْ كاتَبُوا فى الصُّلحِ ، لكِنْ جَوَابُهُم
بِحَضْرَتِنا ما يُثْبِتُ[٦] الخَطُّ لاَ الخَطُّ[٧]

---

(١) السقط : ما سقط بين الزندين قبل استحكام الورى .

(٢) فى الخريدة . البيض السيوف .

(٣) الجنة : كل ما وقى .

(٤) القد : الشق طولا . والقط : القطع عرضا .

(٥) القسط بالفتح : الجور والعدول عن الحق .

(٦) فى الخريدة : تكتب .

(٧) الخط : سيف البحرين ، ومرفأ السفن بالبحر ، وإليه نسبت الرماح . والخط الثانية : المرادبها الكتابة .

سُطُورُ خيُولٍ لا تُغِبُّ دِيَارَهُمْ
لَهَا بالمَوَاضِي والقَنَا الشَّكْلُ والنَّقْطُ
وحربٌ لمَا الأَرْوَاحُ زَاهِقةٌ لِمَا
تُعَايِنُ ، والأَصْوَاتُ مِنْ دَهَشٍ لَغطُ
إذَا أَرْسَلَتْ فَرْعاً من النَّقعِ فاحِماً
أثِيثاً[1] فأسْنانُ الرِّمَاحِ لهَا مُشْطُ
كأنَّ القنَا فيهَا أنَامِلُ حَاسِبٍ
أجَدَّ بهَا فِي السُّرْعَةِ الجَمْعُ وَاللَّقْطُ
رَدَدْنا بهَا ابنَ القُنْشِ عَنَّا ، وإنَّما
يُذَبِّبُه فِي سَرْجِه الشَّدُّ والرَّبْطُ
فقولوا لِغُورِ الدِّينِ : ليسَ لجَائِفِ الجِرَاحَاتِ إلاَّ الكَيُّ في الطِّبِّ وَالبَطُّ[2]
وحَسْمُ أُصُولِ الدَّاءِ أولَى لِعَاقِلٍ
لَبِيبٍ ، إذَا اسْتَوْلَى عَلَى المُدْنَفِ الخِلْطُ[3]
فَدَعْ عَنْكَ مَيْلاً لِلفِرَنْجِ وَهُدْنَةً
بِهَا أبَدًا يخْطِي سِوَاهُمْ ، ولَم يخْطُوا

---

(١) أث النبات : كثر والتف . وهو أثيث : كثير عظيم .

(٢) بط الجرح : شقه .

(٣) المدنف : المريض . والخلاط بالكسر : أن يخالط الرجل في عقله .

تَأمّلْ ، فكَمْ شَرْطٍ شَرَطْتَ عليهمُ
قَدِيمًا ، وكَم غَدْرٍ به نُقِضَ الشَّرْطُ

وشَمِّرْ ، فإنّا قد أعَنّا بِكُلِّ مَا
سَأَلْتَ ، وجَهَّزْنا الجُيُوشَ ، ولَن[1] يُبْطُوا

وَدُونَكَ مجدَ الدِّينِ عَذْرَاءَ زَفَّها
إليكَ الوَفَاءُ المَحْضُ ، والكَرَمُ السَّبْطُ[2]

هَدِيًّا[3] تَهَادَى بَيْنَ حُسْنٍ وَفَائِنا
وإنْعامِنا ، ذَا التَّاجُ زَانَ ، وذَا القُرْطُ

عَلَى أنّها تَشْتَطُّ إنْ هِيَ سَاجَلَتْ :
(أجِيرَةَ قلبِي ، إنْ تَدَانَوْا ، وَإن شَطُّوا[4])

قافية الفاء

قال أسامة قصيدة[5] فى الملك الصّالح مطلعها :

أذْكَرْهِمُ الوُدَّ ، إنْ صَدُّوا ، وإنْ صَدَفُوا
إنَّ الكِرَامَ إذَا اسْتَعْطَفْتَهُمْ عَطَفُوا

---

(١) فى الروضتين : لم .
(٢) السبط : السخى .
(٣) الهدى: العروس .
(٤) مطلع قصيدة أسامة .
(٥) القصيدة بديوان أسامة ص ٨٥ و ١٧٩ .

فأجابه الملك الصّالح (١) :

آدابكَ الغرُّ بحرٌ ، مَالَهُ طَرَفُ فِي كلّ سَمْعٍ بدَا مِن حُسْنِهِ طُرَفُ

نَقولُ ، لمّا أتانا مَا بَعَثْتَ بهِ :

هَذَا كِتابٌ أتَى ، أمْ رَوْضَةٌ أُنُفُ (٢)

خطٌّ تنزّهَتِ الأزْهَارُ حِــينَ بدَا

كأنّهُ الدُّرُّ ، عَنه فُتِّحَ الصّدَفُ

إنْ نَظْمُهُ طَرَقَ الأسْمَاعَ كَانَ لهَا

وإنْ حَوَتْ عَطَلاً مِن حِلْيَةٍ ، شَنَفُ (٣)

رَقّتْ حَوَاشِي كَلامٍ أنتَ نَاظِمُه

فيهِ ، فجَاء كَزَهْرِ الرّوْضِ ، يُقْتَطَفُ

وَرَدْتَ بَحْرَ القَوَافِي ، فاغْتَرَفْتَ كمَا

قَدْ حَلّ يَوْماً بِمَدِّ النِّيلِ مُغْتَرِفُ

زَهَتْ عَلَى البَدْرِ نُوراً ، إذْ أتَتْ بِسَوَادِ النِّقْسِ (٤) يُشْبِهُهُ مِن خَدِّهِ كَلَفُ (٥)

---

(١) النص من ديوان أسامة ص ١٨١ .

(٢) روضة أنف بضمتين : لم ترع .

(٣) الشنف بالفتح : القرط .

(٤) النقس: المداد.

(٥) الكلف : سواد فى صفرة .

قَرْطَسْتَ(١) رَمْياً ، وكَمْ رَامٍ بأَسْهُمِهِ
إِذَا تُحقِّقَ منه يَسْلَمُ الهـــدف

نَاطِرٍ فَاقَ غُزْرَ العَدِّ ، لاَ وَشَلٌ
ولاَ بِبَرْضٍ(٢) ، إِذَ مَا حُلَّ يُغْتَرَف

إِذَا تَطَلَّعَ فَوْقَ الأَرضِ ذُو أَدَبٍ
فَأَنتَ منه على العَيُّوقِ تَشْتَرِفُ(٣)

وإِنْ تَعَرَّى دَعِيٌّ مِن فَضَائِلِهِ
فَأَنت مُدَّرِعٌ مِنها ، ومُلْتَحِفُ

إِذَا تَخَفَّى لِفَتْحٍ(٤) وَجْهُ قَافِيَةٍ
فَمِنْ قَوَافِيكَ شِيلَتْ دُونَنَا السُّجُفُ(٥)

لِأَعْيُنِ النَّاسِ نَهْبٌ مِن مَحَاسِنِهَا
كَمَا القُلُوبُ تُلاَقِيهَا ، فَتَخْتَطِفُ

إِذَا ذَكَرْنَاكَ مَجْدَ الدِّينِ عَاوَدَنَا
شَوْقٌ تَجَدَّدَ مِنْه الوَجْدُ(٦) والأَسَفُ

---

(١) قرطس : أصاب القرطاس ، وهو أديم ينصب للنضال .
(٢) البرض : القليل . والوشل : الماء القليل .
(٣) العيوق : نجم . وتشترف : تشرف .
(٤) لعلها : لفهم . أو لعله يريد فتح مغلقها .
(٥) السجاف : الستر .
(٦) الوجد : الحزن .

ودُونَ ماقَدْ وَجَـدنَاهُ لِفُرقَتِـكُمْ

يُحِيـطُ بِالقَلْبِ مِن أَرْجَائِهِ التَّلَفُ

ولَو عَرَفْتَ الَّذِى فِى القَلْبِ مِنْكَ لَمَا

إنْ[1] كُنتَ عَنَّا عَلَى الأحوالِ تَختَلِفُ

وَلاَ عَجِيبٌ إِذَا حَافَ الزَّمَانُ عَلَى

حُرٍّ ، وكُلُّ قَضَايَاهُ بِهَا جَنَفُ[2]

فَلاَ تَـكُنْ جَازِعاً ، إنَّ التَّجاوُزَ عَنِ

إنفَاقِكَ الصَّبْرَ فِى شَرْعِ الهَوَى سرَفُ

فَإِنْ حَصَلْتَ عَلَى الصَّبْرِ احتَوَيْتَ عَلَى الأجْرِ الجَزِيلِ ، وفِى إِحْرَازِهِ شَرَفُ

يامَنْ جَفَانَا ، ولَو قَد شَاءَ كَانَ إِلَى

جَنَابِنَا[3] دُونَ أَهْلِ الأَرْضِ يَنْعَطِفُ

وَحَقِّ مَنْ أَمَّهُ وَفْدُ الحَجِيجِ ، وَمَنْ

ظَلَّتْ إِلَى بَيْتِهِ الرُّكْبَانُ تَختَلِفُ

إِنَّا لَنُوفِى عَلَى حَالِ البِعَادِ ، كَمَا

نوفِي لِمَنْ ضَمَّهُ فى قُرْبِنا كَنَفُ[4]

---

(١) إن زائدة بعدما .

(٢) الحيف: الظلم . والجنف :الميل والجور .

(٣) الجناب : الفناء ، والناحية .

(٤) الـكنف : الجانب والظل والناحية .

وَنَغفِرُ الذَّنْبَ إن رَامَ المُسِيءُ بِنَا
عَفواً ، ونَسْتُرُهُ فِي حِينِ يَنْكَشِفُ
وإن جَنَى مَنْ رَأى أنَّا نُعاقِبهُ
يَرُدُّنَا الصَّفْحُ أو يَعتاقُنَا الأَنَفُ(١)
نَعَمْ ، ونَحفَظُ عِندَ الغَيبِ صَاحِبَنَا
ولَيسَ يُدرِكُنَا كِبْرٌ ، وَلاَ صَلَفُ(٢)
فَمَا لإيعادِنَا يَوْمَ الوَغَى مَيَلٌ
وَلاَ لِمَوْعِدِنَا يَوْمَ النَّدَى خُلُفُ
فَعِنْدَنَا جَنَّةٌ تَدْنُو الثِّمارُ بِهَا
إذَا دَنَا مُجتَنٍ مِنْهَا ومُقْتَطِفُ
هَدَى مُصَاحِبَنَا ضَوْءُ النَّهَارِ ، وكَمْ
قَدْ ضَلَّ مَنْ فِي ظَلامِ اللَّيْلِ يَعْتَسِفُ(٣)
فَمِلْ إلَيْنَا بِآمَالٍ مُحَقَّقَةٍ
وَكُفَّ غَرْبَ(٤) دُمُوعٍ لَمْ تَزَلْ تَكِفُ

---

(١) يعتاقنا : يعوقنا . والأنف : الاستنكاف .
(٢) الصلف : أن تتمدح بما ليس عندك .
(٣) اعتسف : خبط على غير هداية .
(٤) الغرب : الحدة ، والنشاط ، والتمادى .

كَفَى اغْتِرَاباً ، فَعَجِّل بالإِيابِ لَنَا

فَمِنْكَ لاَ عِوَضٌ يُلْقَى ولاَ خَلَفُ

وقَدْ أَجَبْنَا إِلَى مَا أَنتَ طَالِبُهُ

فالآنَ كَيْفَ تُرَوِّى[1] فيهِ أَو تَقِفُ

فَرأَيْنَا فِيكَ قَد أَضْحَى عَـــلاَنِيَةً

والجُنْدُ قَدْ عَرَفُوا مِنهُ الَّذِى عَرَفُوا

وَقُدِّمَتْ لَكَ تَمْهِيدَاتُنا ، وبِهَا

وَحْشُ الفَلاَةِ إِذَا مَا رُوِّعَتْ أَلِفُ

كأَنَّنَا حِينَ تَجْرِى ذُكْرَةٌ لَكُمُ

عَلَى اضْطِرامِ لَهِيبِ النَّارِ نَعْتَكِفُ

فَإِنْ يُبَالِغْ أُنَاسٌ فِي الثَّناءِ عَلَى

أَوْ صَافِكُمْ قَصَّرُوا فِي كُلِّ مَا وَصَفُوا

فَخُذْ نِظَاماً عَلَى قَدْرِ الَّذِى كَتَبَتْ

يَدَاكَ إِذ عَدَدُ النَّظْمَيْنِ مُؤْتَلِفُ

---

(١) روى فى الأمر : نظر وفكر .

وقال أسامة فى الملك الصّالح قصيدة[1] مطلعها :

مامِنهمُ لك مُعْتاضٌ ، ولاخَلَفُ
فكيف يَصْبِرُ عنهمْ قلبُكَ الكَلِفُ

فأجابه الصّالح طلائع[2] :

عُلومُكَ البحرُ غَمْراً[3] ، ليس تُنْتَزَفُ[4]
أسماعُنا لِمَانِي دُرُّها صَدَفُ
فإنْ يُجِدْ فَلْتَةً فى الدّهرِ ذُو أدبٍ
تَجِدْهُ من بَحْرِكَ الزَّخارِ[5] يَغْتَرِفُ
تُجِيلُ فِكرَكَ فى رَوْضِ العُقولِ ، فلاَ
تَزَالُ تَخْتارُ ما تَجْنِي ، وتقتَطِفُ
بعثْتَ مِنْهَا هَدِيّا فى الوَرَى جُلِيَتْ
فالحُسْنُ وَقفٌ عليهاَ لَيْسَ يَنْصَرِفُ
عَذْرَاء ، تُثْبِتُ فَضْلَ الوَاصِفِينَ لَهَا
فقدْ أفَادَتْ جَمالاً كلَّ مَنْ يَصِفُ

---

(١) القصيدة بديوان أسامة ص ٨٦ و ١٨٣.
(٢) النص من ديوان أسامة ص ١٨٥.
(٣) الغمر : الماء الكثير.
(٤) نزف ماء البئر : نزحه كله.
(٥) زخر البحر كمنع : طمى وتملا.

بَعَثْتَهَا دِيَمًا[1] تُرْوِى بِهَا عَطَشَ الصَّا
دِى[2] ، وَمَسْكَنُهَا فى سِرِّهَا الصُّحُفُ
تُرْوَى القلوبُ بِهَا بَعدَ العُيُونِ ، فَلاَ
قَلبٌ وَلاَ عَيْنَ ، إلاَّ وهْو يَرْتَشِفُ
أَلْهَتْ عَنِ الحُسْنِ والإِحْسَانِ أَجْمَعِهِ
إِذَا اسْتَبَانَ بِهَا عَن غَيْرِهَا أَنَفُ[3]
حَسْنَاءُ تَبْرُزُ ، فى عِرْنِينِهَا[4] شَمَمٌ
مِنَ الجَمَالِ ، وَفِى أَجْفَانِهَا وَطَفُ[5]
كَأَنَّ أَسْمَاعَنَا ، لَمَّا أَصَخْنَ لَهَا
عُجْبًا ، أُتِيحَ لَهَا مِنْ حَلْيِهَا شَنَفُ[6]
بَدَتْ لَنَا كَمَصَابِيحِ الظَّلامِ ، وَفِى
رَأْىِ العُيُونِ أَتَتْنَا الرَّوْضَةُ الأُنُفُ[7]
قَدْ رَفَّهَتْ بِالمَعَانِى عَن فُؤَادِ شَجٍ
قَدْ هَاضَهُ[8] الأَثقَلانِ : الهَمُّ ، والأَسَفُ

(١) ديم : جمع ديمة ، وهى المطر يدوم فى سكون .
(٢) الصادى : العطشان .
(٣) أنف منه كفرح : استنكف .
(٤) العرنين : الأنف . (٥) الوطف محركة : كثرة شعر الحاجبين والعينين .
(٦) الشنف : القرط . (٧) الروضة الأنف : التى لم ترع .
(٨) هاضه : كسره .

إِنْ يَبْتَسِمْ غَلْطَةً فِي الدَّهْرِ عَاتَبَهُ
قَلْبٌ مَدَامِعُهُ فِي صَدْرِهِ تَكِفُ[1]

وَرُبَّ صَعْبٍ بَدَا ، مِنْ بَعْدِ شِدَّتِهِ
لِأَضْعَفِ النَّاسِ حَوْلاً[2] ، وَهْوَ مُنْعَطِفُ

وَكَمْ مُصَابٍ جَنَتْهُ فُرْقَةٌ ، فَغَدَا
سَحَابُهُ بِنَسِيمِ القُرْبِ يَنْكَشِفُ

وَكُرْبَةٍ نُزِعَتْ عَنْهَا مَلَابِسُهَا
وَالقَلْبُ مِنْهَا بِثَوْبِ الهَمِّ مُلْتَحِفُ

وَحِينَ تُشْرِقُ أَنْوَارُ الشُّمُوسِ ، فَمَا
يَضُرُّ مَاضِي لَيَالٍ عَمَّهَا السَّدَفُ[3]

أَحْوَالُ ضُرِّكَ ، مَجْدَ الدِّينِ ، وَاضِحَةٌ
قَدْ كَانَ لِلدَّهْرِ فِي تَوْكِيدِهَا سَرَفُ

بَرْقُ اليَقِينِ بَدَا مِنَّا إِلَيْكَ ، فَمَا
يَغُرُّ خُلَّبُهُ[4] ، بَلْ سُحْبُهُ تَكِفُ

---

(١) وكف : قطر .
(٢) السدف : الظلمة .
(٣) الحول : الحذق ، والقدرة على التصرف .
(٤) البرق الخلب : المطمع المخلف .

لاَ نُخْلِفُ الوَعْدَ مِنَّا بِالنَّجاحِ لِمَنْ
لنَا بِآمَالِهِ فِي القَصْـــدِ يَخْتَلِفُ[1]
يَقُولُ حَاسِدُنَا ، والحَقُّ أَنْطَقَهُ
إِذْ شَمْسُهُ ، لاَ كَمِثْلِ الشَّمْسِ، تَنْكَسِفُ :
أَوْلاَدُ رُزَّيْك لاَ فَخْرٌ كَفَخْرِهِمُ
حَازُوا المَفَاخِرَ فِي الدُّنْيَا ، وهُمْ نُطَف
وكَمْ أَرَادَ الوَرَى إِحْصَاءَ فَضْلِهِمُ
فِي المَـكْرُمَاتِ ، فَمَا اسْطَاعُوا ، ولاَ عَرَفُوا
لَـكِنَّهُمْ أَخَذُوا مَا تَسْتَقِلُّ بِهِ
أَفْهَامُهُمْ ، وإِلَى حَيْثُ انْتَهَوْا وَقَفُوا
نُدْنِي الغِنَى مِن يَدَىْ رَبِّ المُنَى ، فَلَنَا
بِهِ المَطِيُّ إِلى أَوْطَانِهِمْ تَجِفُ[2]
فِي غَيْرِنَا تَخْجَلُ الآمَالُ ، إِنْ قَصَدَتْ
وَمَا يَخِيبُ رَجَاءٌ عِنْـــدَنَا يَقِفُ
وَقَدْ قَضَى اللهُ بِي تَأْلِيفَ شَمْلِكُمُ
وَكَانَ ظَنُّكُمُ أَنْ لَيْسَ يَأْتَلِفُ

---

(١) اختلف إليه : تردد .

(٢) الوجيف : ضرب من سير الخيل والإبل .

وقَدْ أَسَاءَ لَكُمْ دَهْرٌ مَضَى ، فَإِذَا
شِئْتُمْ مِنَ الدَّهْرِ فَاقْتَصُّوا ، أو انْتَصِفُوا

وَاقْضُوا دُيُونَ الهَوَى عَنْ مُدَّةٍ سَلَفَتْ
تَشَاكِيًا ، وَعَلَى المُسْتَأْنَفِ اسْتَلِفُوا

وَقَدْ بَدَأْنَا ، وَتَمَّمْنَا ، فَهَلْ أَمَلٌ
يَدْعُو ، وَهَلْ مَدْمَعٌ قَدْ عَادَ يَنْذَرِفُ[1]

نَحْنُ الزُّلَالُ دَفَعْنَا غُصَّةً عَرَضَتْ
لَكُمْ ، فَلَمَّا عَرَضْنَا لَمْ تَكُنْ تَقِفُ

وَعِنْدَنَا أَهْلُكُمْ ، كَانُوا لَعَيْشِهِمُ
كَأَنَّهُمْ عَنْكَ مَا غَابُوا ، ولاَ انْصَرَفُوا

كَمْ جَهْدُ ذِي الهَمِّ أَنْ يَبْقَى تَجَلُّدُهُ
عَلَيْهِ ، والهَمُّ فِي اسْتِمْرَارِهِ التَّلَفُ

لاَ تَأْسَفَنَّ عَلَى فِقْدَانِ غَيْرِهِمُ
فَفِي المَلَاوِمِ قد جُرَّتْ له عُطَفُ[2]

قَوْمٌ إِذَا ارْتَفَعُوا قَدْراً هَوَوْا هِمَماً
فَالمَكْرُمَاتُ ، لَعَمْرِي بَيْنَهُمْ طُرَفُ[3]

---

(١) ذرفت العين دمعها : أسالته . (٢) الملاوم : جمع الملامة .
(٣) الطرفة : المال المستحدث .

وَلاَ تَقُلْ إِنْ تَذَكَّرْتَ البِلاَدَ أَسىً
بِأَنَّ قَلْبَكَ بِالأَشْوَاقِ مُخْتَطَفُ
وَإِنَّ دَوْلَتَنَا كُنْتَ الوَحِيدَ بِهَا
فَضْلاً ، فَكَيْفَ يُرَى مِنْكُمْ بِهَا خَلَفُ
عَلَيْكُمُ بِدعُ[1] الآدابِ قَدْ وُقِفَتْ
فَمَا لَهَا عَنْكُمُ فِي الدَّهْرِ مُنْحَرَفُ
مَنْ نَاشِدٌ عَهْدَ ذَاكَ الاجْتِمَاعِ لَنَا
فَقَدْ أَضَاعَتْهُ مِنْكُمْ نِيَّةٌ قُذُفُ[2]
هُنِّيتَ أَهْلَكَ مَجْدَ الدِّينِ ، فَانْتَجِعِ الأَفْرَاحَ ، وانْظُرْ ، فَإِنَّ الخَيْرَ مُؤْتَنَفُ[3]

قافية القاف

كتب الملك الصّالح إلى أسامة هذه القصيدة [4] بخطّ يده :

أَيُّهَا الْمُنْقِذِيُّ[5] أَنْتَ عَلَى البُعْدِ صَدِيقٌ لَنَا ، وَنِعْمَ الصَّدِيقُ
لَيْسَ فِيمَا تَأْتِيهِ مِنْ بِرِّ أَفْعَالِكَ لِلطَّالِبِ الحُقُوقِ عُقُوقُ

---

(١) البدع بالكسر : الأمر الذى يكون أولا .

(٢) نية قذف : بعيدة .

(٣) الائتناف : الاستئناف ، والابتداء .

(٤) النص من ديوان أسامة ص ١٣٦ ، والروضتين ١ : ١١٦ .

(٥) نسبة إلى منقذ : أحد آباء أسامة ، وفى الروضتين : المقتدى .

فَلِهَذَا نَرَى مُوَاصَلَةَ الكُتْبِ تِبَاعاً إِلَيْكَ مِمَّا يَلِيقُ
وَنُنَاجِيكَ بِالْمُهِمَّاتِ ، إِذْ أَنْتَ بِإِلْقَائِهَا إِلَيْكَ خَلِيقُ
وَأَهَمُّ الأُمُورِ[1] أَمْرُ جِهَادِ الكُفْرِ ،فَاسْمَعْ فَعِنْدَنَا التَّحْقِيقُ
واصَلَتْهُمْ مِنَّا السَّرَايَا[2] ، فَأَشْجَاهُمْ[3] بُكُورٌ مِنَّا لَهُمْ وَطُرُوقُ
وَأَبَاحَتْ دِيَارَهُمْ ، فَأَبَادَ القَوْمَ قَتْلٌ مُلاَزِمٌ وَحَرِيقُ
وانْتَظَرْنَا بِزَحْفِنَا بُرْءَ نُورِ الدِّينِ عِلْماً مِنَّا بِأَنْ سَيُفِيقُ
وَهُوَ الآنَ فِي أَمَانٍ مِنَ اللهِ ، وَمَا يَعْتَرِيهِ أَمْرٌ يَعُوقُ
مَا لِهَذَا المُهِمِّ مِثْلُكَ ، مَجْدَ الدِّينِ ،فَانْهَضْ بِهِ ، فَأَنْتَ حَقِيقُ
قُلْ لَهُ ، لاَ عَدَاهُ رَأْيٌ ، وَلاَ زَالَ لَدَيْهِ لِكُلِّ خَيْرٍ طَرِيقُ :
أَنْتَ فِي حَسْمِ دَاءِ طَاغِيَةِ الكُفَّارِ ذَاكَ المَرْجُوُّ والمَرْمُوقُ
فَاغْتَنِمْ بِالجِهَادِ أَجْرَكَ ، كَيْ تَلْقَى رَفِيقاً لَهُ ، وَنِعْمَ الرَّفِيقُ

فأجابه أسامة بقصيدة[4] مطلعها :

كَمْ، إِلَى كَمْ يُلْحَى المُحِبُّ المَشُوقُ وَهُوَ مِن سَكْرَةِ الهَوَى لاَ يُفِيقُ

---

(١) في الروضتين: المهم .
(٢) السرايا : جمع سرية ، وهى الجزء من الجيش .
(٣) أشجاه : أحزنه .
(٤) باقي القصيدة بديوان أسامة ص ١٣٦ .

قافية اللام

وكتب إليه الملك الصالح[1] :

قلْ لابنِ مُنْقِـــذِ الذى قدْ حازَ فى الفضلِ الكمالا
فلذاكَ قدْ أضحى الأنا مُ على فضائلِهِ[2] عِيالا
وقريضُهُ عِنْـــدَ الظَّمَا يُنْسيهِمُ الماءَ الزُّلالا
كالدُّرِّ والياقوتِ ، ما سكَنَ البحارَ ، ولا الجبالا
لـكـنْ يُجاوِرُ فَيْضَ أيْمانٍ ، وأخْــلاماً ثِقالا :
ما كانَ ظَنِّى أنْ يُحرِّمَ منْهُ لِى السِّحْرَ الحلالا
كَلاًّ ، ولا يَشكو لِحَمْلِ رَسائلٍ منِّى كَلالا[3]
كمْ قدْ بعثْنا نحوَكَ الأشعارَ مُسْرِعَةً عِجالا
مِثْلَ الحِسانِ الغِيـــدِ[4] تاهتْ فى محاسنِها دَلالا
بذَلَتْ لكَ الممْنوعَ ، ثُمَّ منَحْتَها منْكَ ابْتِذالا[5]
وصَدَدْتَ عنْها حينَ رامَتْ مِنْ محاسِنِكَ الوِصالا
ما كانَ مُرْسِلُها ، وحقِّكَ ، يَسْتَحِقُّ بها المَلالا

---

(١) النص من ديوان أسامة ص ٣١٣ ، والروضتين ١ : ١١٧ .
(٢) فى الروضتين : مكارمه .
(٣) الكلال : الإعياء .
(٤) الغيد : جمع غيداء ، وهى المتثنية لينا .
(٥) الابتذال : ضد الصيانة .

هَلاَّ بَذَلْتَ لَنَا مَقَالاً ، حِينَ لَمْ تَبْذُلْ فِعَالا
مَعَ أَنَّنَا نُولِيكَ صَبْراً فِي المَوَدَّةِ وَاحْتِمَالاَ
وَنُبُثُّكَ الأَخْبَارَ إِنْ أَضْحَتْ قِصَاراً أَوْ طِوَالاَ
سَارَتْ سَرَايَانَا لِقَصْدِ الشَّامِ ، تَعْتَسِفُ[1] الرِّمَالاَ
تُزْجِي إِلَى الأَعْدَاءِ جُرْدَ الخَيْلِ أَتْبَاعاً[2] تَوَالَى
تَمْضِي خِفَافاً لِلْمُغَارِ[3] بِهَا ، وَتَأْتِينَا ثِقَالاَ
حَتَّى لَقَدْ رَامَ الأَعَادِي مِنْ دِيَارِهِمُ ارْتِحَالا
وَعَلَى الوُعَيْرَةِ[4] مَعْشَرٌ لَمْ يَعْهَدُوا فِيهَا القِتَالا
لَمَّا نَأَتْ عَنْ يَحْفُ بِهَا يَمِيناً أَوْ شِمَالا
نَهَضَتْ إِلَيْهَا خَيْلُنَا مِنْ مِصْرَ تَحْتَمِلُ[5] الرِّجَالا
وَالْبِيضَ لاَمِعَةً ، وَبِيضَ الهِنْدِ ، والأَسَلَ النِّهَالا[6]
فَغَدَتْ كَأَنْ لَمْ يَعْهَدُوا فِي أَرْضِهَا حَيًّا حِلاَلاَ[7]
هَذَا ، وَفِي تَلِّ العُجُولِ[8] مَلَأْنَ بِالقَتْلَى التِّلاَلاَ

(١) اعتسف الطريق : خبط على غير هداية .
(٢) أتباع : يأتى بعضها خلف بعض .
(٣) المغار . الإغارة .
(٤) الوعيرة : اسم حصن .
(٥) احتمله : حمله .
(٦) النهال : جمع ناهلة ، وهى المختلفة إلى المنهل . وبيض الهند : السيوف . والأسل : الرماح .
(٧) الحلال : جمع حلة ، وهى القوم النزول ، وجماعة بيوت الناس
(٨) موضع بالشام .

إِذْ مَرَّ مُرِّى[1] لَيْسَ يَلْوِى[2] نَحْوَ رُفْقَتِهِ اشْتِغَالاَ

وَاشْتَاقَ عَسْكَرُنَا لَهُ أَهْلاً يُحِبُّهُمُ وَمَالاَ

وَسَرِيَّةُ ابْنِ فُرَيْجَ الطَّائِيِّ طَالَ بِهَا وَصَالاَ

سَارَتْ إِلَى أَرْضِ الخَلِيلِ ؛ فَلَمْ تَدَعْ فِيهَا خِلاَلاَ[3]

فَلَوَانَّ نُورَ الدِّينِ يَجْمَلُ فِعْلَنَا فِيهِمْ مِثَالاَ

وَيُسَيِّرُ الأَجْنَادَ جَهْراً ، كَىْ يُنَازِلَهُمْ[4] نِزَالاَ

وَيَفِى لَنَا ، وَلِأَهْلِ دَوْلَتِهِ بِمَا قَدْ كَانَ قَالاَ

لَرَأَيْتَ لِلإِفْرِنْجِ طُرّاً فِى مَعَاقِلِهَا اعْتِقَالاَ

وَإِذَا أَبَى إِلاَّ اطِّرَاحاً لِلنَّصِيحَةِ وَاعْتِزَالاَ

عُذْنَا بِتَسْلِيمِ الأُمُورِ لِحُكْمِ خَالِقِنَا تَعَالَى

فأجابه أسامة بقصيدة[5] مطلعها :

يَا أَشْرَفَ الوُزَرَاءِ أَخْلاَقاً ، وَأَكْرَمَهُمْ فِعَالاَ

* * *

وكتب الملك الصالح إلى أسامة قصيدة[6] بخط يده :

---

(١) مرى : أحد ملوك الفرنج الصليبيين Amary

(٢) يلوى : ينتظر .

(٣) الخلال . جمع خل ، وهو الطريق .

(٤) هذه رواية الروضتين ، وهى أولى من رواية ديوان أسامة : تنازلهم .

(٥) باقى القصيدة فى الديوان ص ٢١٥ .

(٦) النص من ديوان أسامة ص ١٤٠ و ٢١٧ .

أيها السائرُ المُجِدُّ إلى الشام تبارى[1] ركابهُ والخيول
خُذْ لى بلدة بها دار مجد الدين[2] ، لا ريع ربعها المأهولُ
وتعرّفْ أخبارَهُ ، وَاقره منّا سَلاماً فيه العتابُ يجولُ
قُلْ لَهُ : أنتَ نِعمَ ذُخْرُ الصّديقِ اليومَ ، لكنّكَ الصّديقُ الملولُ
مَا ظننّا بأنَّ حالَكَ فى القُرْبِ وَلاَ البُعْدِ بالملالِ تحُولُ[3]
لاَ كِتابٌ ، وَلاَ جَوابٌ ، وَلاَ قَوْلٌ بِهِ لليقينِ مِنّا حُصُولُ
غيرَ أنّا نُوَاصِلُ الكُتْبَ ، إذْ قصّرَ منكَ البرُّ الكريمُ الوَصُولُ
ذاكرينَ الفتحَ الّذى فتحَ اللهُ علَينا ، فالصُّنْعُ منهُ جميلُ
لَمْ يزَلْ فِعلُنا لَهُ خالِصاً ، وَهْوَ لِمَا شاءَ فِى الأنامِ فَعُولُ
جاءنا بعدَما ذكرْناهُ فى كُتْبٍ أتاكُمْ بهنّ منّا الرّسُولُ
أنَّ بَعضَ الأُسْطولِ نَالَ مِنَ الإفرنجِ مَالاَ ينالُهُ التأميلُ
سَارَ فِى قِلَّةٍ ، وَمَا زَالَ بِاللهِ وَصِدْقِ النيّاتِ يَنمِى القَليلُ
وَبَقَايَا الأسْطولِ لَيْسَ لَهُ بَعْدُ إلَى سَاحِلِ الشّامِ وُصُولُ
فَحوَى مِنْ عَكَّا وأنطرْطوسَ[4] عُدَّةً لَمْ يُحِطْ بِهَا التّحصِيلُ

(١) تبارى أى تتبارى . وباراه : عارضه .
(٢) لقب أسامة .
(٣) حال الشىء : تحول .
(٤) أنطرطوس : بلد ساحلى بالشام .

جَمْعَ دِيوِيَّةٍ[1] بِهِمْ كَانَتِ الإِفْرِنْجُ تَسْطُو عَلَى الوَرَى وَتَصُولُ
قِيدَ فِي وَسْطِهِمْ مُقَدَّمُهُمْ يُهْدَى إِلَيْنَا ، وَجِيدُهُ مَغْــلُولُ
بَعْدَ مَثْوَى جَمَاعَةٍ هَلَكَتْ بِالسَّيْفِ ، مِنْهَا الغَرِيقُ والمَقْتُولُ
هَذِهِ نِعْمَةُ الإِلَهِ ، وتَعْدِيدُ أَيَادِي الإِلَهِ شَيْءٌ يَطُولُ
فَأَبْلِغَنْ قَوْلَنَا إِلَى المَلِكِ العَادِلِ ، فَهُوَ المَرْجُوُّ والمَأْمُولُ
قُلْ لَهُ : كَمْ تُمَاطِلُ الدِّينَ فِي الكُفَّارِ ، فَاحْذَرْ أَنْ يَغْضَبَ المَمْطُولُ
سِرْ إِلَى القُدْسِ ، وَاحْتَسِبْ ذَاكَ فِي اللهِ ، فَبِالسَّيْرِ مِنْكَ يُشْفَى الغَلِيلُ
وَإِذَا مَا أَبْطَأَ مَسِيرُكَ فَاللهُ إِذًا حَسْبُنَا وَنِعْمَ الوَكِيلُ

فأجابه أسامة بقصيدة[2] مطلعها :

أَيْنَ سَمْعِي عَمَّا يَقُولُ العَذُولُ أَنَا بِالهَجْرِ والنَّوَى مَشْغُولُ

قافية الميم

كان[3] لأسامة على ديوان الصّناعة قبل أيّام الملك الصّالح فى كل سنة خروج كتّان بمائة دينار ، فأحال بها تجّارا من أهل الشّام عن ثمن كسوة قبضها منهم ، وتمادى مقامهم فى الدّيار المصريّة ، إلى أن خرج منها ، فمنعوا من الإطلاق ، ووصلوا إلى الشّام ، ولم يقبضوا مما لهم فى جهته شيئا ، فسألوه

---

(١) الديوية : لقب لطائفة من الصليبيين .
(٢) القصيدة فى ديوان أسامة ص ١٤٠ .
(٣) النص من هنا إلى آخر قصيدة الصالح فى ديوان أسامة ص ١٤٣ .

فى رقعة يرفعونها إلى الملك الصّالح ، فـكتب إليه مطالعة ، ضمنها هذه الأبيات :

يُلَطُّ[1] بالدَّينِ مَنْ مَوْلاَهُ مُسْلِمُهُ
حَتَّى يُخَلِّصَهُ السُّلْطَانُ والحَكَمُ

لَـكِنَّ مَوْلاَىَ يَقْضِى ما اسْتَدَنْتُ ، وَلاَ
يَلْقَى سُؤَالِىَ مِنْهُ الصَّدُّ والسَّأَمُ

فَـكَفُّهُ البَحْرُ ، لَـكِنْ مَوْجُهُ بِدَرٌ[2]
وَجُودُهُ الغَيْثُ ، لَـكِنْ وَبْلُهُ نِعَمُ[3]

فأمر الملك الصّالح بتجديد التوقيع ، ووفاء التّجّار ، وتخليد التّوقيع فى الدّواوين ، واستمرار الإطلاق ، وكتب إليه هذه القصيدة من نظمه بخطه :

أَقْسَمْتُ بِالجُودِ مِنَّا ، إِنَّهُ قَسَمُ
وَبِالمَوَدَّةِ مِنْـكُمْ ، إِنَّهَا رَحِمُ

إِنَّا لَنَحْفَظُ فِيـكُمْ مَعْ بِعَادِكُمُ
شَرِيعَةً سَنَّهَا فِى دِينِنَا الـكَرَمُ

وَكُـلَّمَا رَامَ وَاشٍ نَقْضَ مَذْهَبِهَا
أَضْحَتْ تُؤَكِّدُهُ الأَخْلاَقُ والشِّيَمُ

---

(١) يلط . يمنع من الحق .

(٢) البدر : جمع بدرة ، وهى كيس فيه سبعة آلاف دينار .

(٣) الوبل : المطر الشديد الضخم .

لسْنَا كَقَوْمٍ ، وَلاَ نُزْرِي[1] عَلَى أَحَدٍ

وَلُوا ، فَلَمَّا رَجَوْتُمْ عَدْلَهُم ظَلَمُوا[2]

بِعِلْمِنَا قَدْ حَكَمْنَا فِي إِخَائِكُمُ

دَهْراً ، وَمَا حَكَمُوا فِيكُمْ بِمَا عَلِمُوا

لَمْ يَعْرِفُوا لَكُمُ قَدْراً ، وَإِنْ كَرُمَتْ

أَخْلاَقُهُمْ ، وعَرفنا قَدرَ فَضْلِكُمُ

وَلَيْسَ ذَاكَ لِشَيْءٍ غَيْرَ أَنَّهُمُ

بِالطَّبْعِ لاَ تَنْفُقُ[3] الآدَابُ عِنْدَهُمُ

والعُرْبُ أَقْتَلُ دَاءٍ يَهْلِكُون بِهِ

أَنْ تَمْلِكَ الحُكْمَ فِي أَعْنَاقِهَا عَجَمُ

تَرفَّعَتْ بِكَ ، مَجْدَ الدِّينِ ، هِمَّةُ مَنْ

نُجُومُهُ فِي سَمَوَاتِ العُلاَ الهِمَمُ

إِذَا تَأَخَّرَتِ الآدَابُ ، وَامْتَنَعَتْ

تَقَدَّمَتْ لَكَ فِي إِحْرَازِهَا قَدَمُ

---

(١) أزرى عليه : عابه .

(٢) يشير الى قصيدة لأسامة ، يعاتب بها بعض من اتصل بهم ، وأولها :

ولوا ، فلما رجونا عدلهم ظلموا فليتهم حكموا فينا بما علموا

(٣) نفق : راج .

وَإنْ نَظَمْتَ قَرِيضاً فِي مُكَاتَبَةٍ
فَالبَحْرُ مَا زَالَ مِنهُ الدُّرُّ يَنْتَظِمُ
لِلّهِ كُتْبٌ تَوَالَتْ ضِمْنُهَا دُرَرٌ
مِنْ بَحْرِ ذِلِكَ قَالُوا : إنّهَا كَلِمُ
يَقِلُّ فِي فَضْلِهَا أَمْثَالُهَا ، فَإذا
تَلَوْتَهَا ، فَهِيَ الأَمْثَالُ والحِكَمُ
سَأَلْتَ مَا قَدْ أَجَبْنَاهُ ، وَمَا بَرِحَتْ
قُصَّادُنَا فِي الذِي تَحْوِيهِ تَحْتَكِمُ
إنْ أَمْسَكَ الغَيْثُ فَانظُرْ مَا تَجِيءُ بِهِ
أَنْوَاؤُنَا[1] ، فَهْيَ مَهْمَا شِئْتَهَا دِيَمُ
وَلَوْ حَلَلْتَ بِوَادِينَا عَلَى وَجَلٍ
أَيْقَنْتَ مِنْ غَيْرِ شَكٍّ أَنّهُ الحَرَمُ
وَالأَرْضُ مَا بَرِحَتْ مِثْلَ الرِّجالِ : تُرَى
مِنَ الرِّجَالِ لَهَا الإثْرَاءُ والعُدُمُ
كَذَاكَ إنْ قَلَّ حَظُّ الوُدِّ عِنْدَكُمُ
فَالحَظُّ كَالرِّزْقِ مَا بَيْنَ الوَرَى : قِسَمُ

(١) النوء : المطر .

يَا غَائِبِينَ ، وَقَدْ أَضْحَتْ مَنَازِلُهُمْ

صُدُورَنَا ، هَلْ عَلِمْتُمْ أَنَّهَا حَرَمُ

قُولُوا لنا : هَلْ وَجَدْتُمْ مَعْ جَفَائِكُمُ

رِحَابَهَا الْيَوْمَ أَحْمَى أَمْ حُصُونَكُمْ

بِالسَّهْلِ مِنْهَا اعْتَصَمْتُمْ عَنْ مُعَانِدِكُمْ

وَالنَّاسُ مِنْ قَبْلُ بِالأَجْبَالِ تَعْتَصِمُ

قَالُوا : الْمَعَارِفُ فِي أَهْلِ النُّهَى ذِمَمٌ

وَقَدْ غَدَا بَيْنَنَا الْعِرْفَانُ وَالذِّمَمُ[1]

وَمَا نُلَاطُ[2] بِدَيْنٍ تَدَّعُونَ بِهِ

حَتَّى يُخَلِّصَهُ السُّلْطَانُ وَالْحَكَمُ

بَلْ عِنْدَنَا إِنْ سَأَلْتُمْ وَاثِقِينَ بِنَا

فِي حَاجَةٍ نِعَمٌ ، جَوَابُهَا نَعَمُ

بَعُدْتُمُ ، وَمُنَانَا الآنَ قُرْبُكُمُ

فَكَيْفَ يَعْتَادُنَا فِي وُدِّكُمْ سَأَمُ

لَوْ أَبْصَرَتْ ، لاَ رَأَتْ سُوءًا عُيُونُكُمُ

جَوَارِحِي الْيَوْمَ فِيكُمْ وَهْيَ تَخْتَصِمُ

---

(١) يشير الى قول المتنبي (ط هندية ص ٢٥٤) :

وبيننا ، لو رعيتم ذاك ، معرفة — إن المعارف في أهل النهى ذمم

(٢) يلاط : يمنع من الحق .

تَقُولُ عَيْنِي لِقَلْبِي : قَدْ ظَفِرْتَ بِهِمْ
دُونِي ، وَمَالَكَ مِثْلِي أَدْمعٌ سُجُمُ[١]

وَقَوْلَ قَلْبِي لِعَيْنِي : إِنْ حَظِيتُ بِهِم
مَعَ بُعْدِهِمْ فَلِيَ الأَشْوَاقُ والأَلَمُ

إِذاً رَأَيْتَ مَلِيكاً ظَلَّ يَمْلِكُهُ
وَفَاؤُهُ ، وَبَنُو الدُّنْيَا لَهُ خَدَمُ

وكتب إليه الملك الصالح[٢] :

أَلاَ هَكَذَا فِي اللهِ تَمْضِي العَزَائِمُ
وَتَمْضِي لَدَى الحَرْبِ السُّيُوفُ الصَّوَارِمُ

وَتُسْتَنْزَلُ الأَعْدَاء مِنْ طَوْدِ عِزِّهِمْ
وَلَيْسَ سِوَى سُمْرِ الرِّمَاحِ سَلاَلِمُ

وَتُغْزَى جُيُوشُ الكُفْرِ فى عُقْرِ دَارِهَا
وَيُوطَأُ حِمَاهَا ، وَالأُنُوفُ رَوَاغِمُ

وَيُوفِي الكِرَامُ النَّاذِرُون بِنَذْرِهِمْ
وَإِنْ بُذِلَتْ فِيهِ النفُوسُ الكَرَائِمُ

---

(١) سجم الدمع : سال .

(٢) النص من ديوان أسامة ص ٢٢٠ ، وبعضه فى الروضتين ١ : ١١٥ .

نَذَرْنَا مَسِيرَ الجَيْشِ فِي صَفَرٍ ، فَمَا
مَضَى نِصْفُهُ حَتَّى انْثَنَى وهْوَ غَانِمُ

بَعَثْنَاهُ مِن مِصْرٍ إِلَى الشَّامِ قَاطِعاً
مَفَاوِزَ[1] ، وَخْدُ[2] العِيسِ[3] فِيهِنَّ دَائِمُ

ونَاهِيكَ مِنْ أَرْضِ الجِفَارِ[4] إِذَا الْتَظَى
بِجَنْبَيْهِ مَشْبُوبٌ[5] مِنَ القَيْظِ جَاحِمُ[6]

وَصَارَتْ عُيُونُ المَاءِ كَالعَيْنِ عِزَّةً[7]
إِذَا مَا أَتَاهَا العَسْكَرُ المُتَزَاحِمُ

فَمَا هَالَهُ بُعْدُ الدِّيَارِ ، وَلاَ ثَنَى
عَزِيمَتَهُ جَهْدُ الظَّمَا وَالسَّمَائِمُ[8]

يُهَجِّرُ[9] ، وَالعُصْفُورُ فِي قَعْرِ وَكْرِهِ
وَيَسْرِي إِلى الأَعْدَاءِ ، وَالنَّجْمُ نَائِمُ

---

(١) المفاوز : جمع مفازة ، وهى الفلاة .
(٢) الوخد للبعير : الإسراع فى السير .
(٣) العيس : الإبل البيض ، يخالط بياضها شقرة .
(٤) الجفار : أرض بين فلسطين ومصر ، أولها رفح ، كلها رمال بيض .
(٥) من شبت النار : اتقدت .
(٦) الجاحم : الجحيم .
(٧) عزة : من عز الشيء : قل .
(٨) السموم : الريح الحارة .
(٩) هجر : سار فى الهاجرة ، وهى نصف النهار ، عند زوال الشمس .

إذا ما طوى الرايات وقت مسيره
غدت عوضاً منها الطيور الحوائم

تبارى خيولاً ما تزال كأنها
إذا ما هي انقضت نسور قشاعم[1]

فإن طلبت قصداً تساوين سرعة
قوادمها[2] في جوها والقوائم

هي الدهم ألواناً، وصبغ عجاجة
فإن طلبت أعداءها فالأداهم[3]

تصاحبها علماً بأن سوف تغتدى
بها، ولها في الكافرين مطاعم

كما أن وحش القفر مازال منهم
مدى الدهر أعراس لهم وولائم

خيول إذا ما فارقت مصر تبتغى
عداً، فلها النصر المبين ملازم

(١) القشعم: المسن من النسور والضخم.

(٢) القوادم: ريشات فى مقدم الجناح.

(٣) الدهم: جمع أدهم. وهو الأسود. والأداهم: القيود.

يَسِيرُ بِهَا ضِرْغَامُ[(١)] فِي كُلِّ مَأْزِقٍ
وَمَا يَصْحَبُ الضِّرْغَامَ إِلاَّ الضَّرَاغِمُ[(٢)]

وَرَافَقَتْهُ عَيْنُ الزَّمَانِ ، وَحَاتِمٌ
وَيَحْيَى[(٣)] وَإِنْ لاَقَى الْمَنِيَّةَ حَاتِمُ

مَضَى طَاهِرَ الأَثْوَابِ مِنْ كُلِّ رِيبَةٍ
شَهِيداً ، كَمَا تَمْضِي السَّرَاةُ[(٤)] الأَكَارِمُ

هَنِيئاً لَهُ ، يُسْقَى الرَّحِيقَ[(٥)] ، إِذَا غَدَتْ
تُحَيِّيهِ فِي الْخُلْدِ الْحِسَانُ النَّوَاعِمُ

ولَو أَنَّنَا نَبْكِي عَلَى فَقْدِ هَالِكٍ
لَقَلَّتْ لَهُ مِنَّا الدُّمُوعُ السَّوَاجِمُ

وَلَكِنَّنَا بِعْنَا الإِلَهَ نُفُوسَنَا
وَرُحْنَا ، ومَامِنَّا عَلَى الْبَيْعِ نَادِمُ

تَهُونُ عَلَيْنَا أَنْ تُصَابَ نُفُوسُنَا
إِذَا لَمْ تُصِبْنَا فِي الْحَيَاةِ الْمَآثِمُ

---

(١) ضرغام . قائد مصرى .
(٢) الضراغم : جمع ضرغام : الأسد .
(٣) أسماء قواد ثلاثة .
(٤) السراة : السادة .
(٥) الرحيق : الخمر أو أطيبها .

وَمَا خَامَ[١] إِذْلاَ فَى هُمَامٌ وَصِنْوُهُ
عَشِيَّةَ أَصْوَاتُ الرِّجَالِ هَمَاهِمُ[٢]

وَبَرْقِيةٌ[٣] شَامُوا السُّيُوفَ ، فَلَمْ يَعِشْ
لِبَارِقِهَا فِي سَاحَةِ الشَّامِ شَائِمُ

وَأَفْنَاءُ[٤] جُنْدٍ ، لَوْ تَوَجَّهَ جَمْعُهُمْ
لِرُومِيَةٍ جَالَتْ عَلَيْهَا الْمَقَاسِمُ

وَجَمْعُ مَمَالِيكٍ بِأَفْعَالِنَا اقْتَدَوْا
فَكُلُّهُمُ بِالطَّعْنِ وَالضَّرْبِ عَالِمُ

وسِنْبِسُ[٥] قَدْ شَادُوا الْمَعَالِي بِفِعْلِهِمْ
وَلَيْسَ لَهُمْ إِلاَّ الْعَوَالِي دَعَائِمُ[٦]

وَثَعْلَبَةٌ[٧] أَضْحَوْا بِنَا قَدْ تَأَسَّدُوا[٨]
فَمَا لَهُمُ فِي الْمُشْرِكِينَ مُقَاوِمُ

---

(١) خام عنه : نكص وجبن . والصنو : الأخ .
(٢) الهمهمة : الكلام الخفى ، وتردد الزفير فى الصدر من الهم .
(٣) برقية : طائفة من الجيش المصرى ، قدم أصولهم من برقة .
(٤) الأفناء : الأخلاط . وجالت عليها المقاسم ، يريد : انهزمت . ورومية : روما .
(٥) فرقة من الجيش .
(٦) العوالى : أعالى الرماح .
(٧) قبائل فى الجيش المصرى .
(٨) تأسد : صار كالأسد .

وإنَّ جُذَاماً [١] لمْ يَزَلْ قطُّ مِنْهُمُ
قَدِيماً لِحَبْلِ الـكفْرِ بِالشَّامِ جَاذِمُ [٢]

جُيُوشٌ أَفَدْنَاهَا اعْتِزَاماً وَنَجْدَةً
فَطَاعِنُنَا مِنْهُمْ ، وَمِنَّا العَزَائِمُ

إذَا مَا أثَارُوا النَّقْعَ فَالثَّغْرُ عَابِسٌ
وَإنْ جَرَّدُوا الأَسْيَافَ فَالثَّغْرُ بَاسِمُ

وَلَمَّا وَطُوا أَرْضَ الشَّآمِ تَحَالَفَتْ
فَأَضْحَتْ جَمِيعاً عُرْبُها وَالأَعَاجِمُ

ووَاجَهَهُمْ جَمْعُ الفَرَنْجِ بِـ ـمَـلَةٍ
تَهُونُ عَلَى الشُّجْعَانِ مِنْهَا الهَزَائِمُ

فَلَقَوْهُمُ زُرْقَ الأَسِنَّةِ ، وَانْطَوَوْا
عَلَيْهِم ، فَلَمْ يَنْجُمْ مِنَ الـكُفْرِ نَاجِمُ [٣]

وَمَا زَالَتِ الحَرْبُ العَوَانُ [٤] أَشَدَّهَا
إذَا مَا . تَلَاقَى العَسْكَرُ المُتَصَادِمُ

---

(١) من قبائل الجيش المصرى .
(٢) جذمه : قطعه .
(٣) نجم : ظهر .
(٤) الحرب العوان : هى التى قوتل فيها مرة بعد مرة .

يُشَبِّهُهُمْ مَنْ لاَحَ جَمْعُهُمْ لَهُ
بِلُجَّةِ بَحْرٍ مَوْجُهَا مُتَلاَطِمُ

وَحَسْبُكَ أَنْ لَمْ يَبْقَ فِي القَوْمِ فَارِسٌ
مِنَ الجَيْشِ إلاّ وَهْوَ للرُّمْحِ حَاطِمُ(١)

وَعَادُوا إِلَى سَلِّ السُّيُوفِ ، فَقُطِّعَتْ
رُءُوسٌ ، وَحُزَّتْ لِلْفَرَنْجِ غَلاَصِمُ(٢)

فَلَمْ يَنْجُ مِنْهُم يَوْمَ ذَاكَ مُخَبِّرٌ
وَلاَ قِيلَ : هَذَا وَحْدَهُ اليَوْمَ سَالِمُ

كَذَلِكَ مَا يَنْفَكُّ تُهْدَى إِلَى العِدَا
ولِلوَحْشِ أَعْرَاسٌ لَهُمْ وَمَآتِمُ

وَتَسْرِى لَهُمْ آرَاؤُنَا وَجُيُوشُنَا
بِدَاهِيَةٍ تَبْيَضُّ مِنْهَا المَقَادِمُ(٣)

نُقَتِّلُهُمْ بالرَّأْيِ طَوْراً ، وَتَارَةً
تَدُوسُهُمْ مِنَّا المَذَاكِى الصَّلاَدِمُ(٤)

---

(١) الحطم : الكسر .

(٢) الغلصمة : اللحم بين الرأس والعنق ، أو رأس الحلقوم .

(٣) مقدم العين كمحسن ومعظم : ما يلى الأنف ، ومن الوجه : ما استقبلت به .

(٤) الصلدم كزبرج : الأسد ، والصلب الشديد الحافر . والمذاكى من الخيل : ما أتى عليها بعد قرحها سنة وسنتان .

وَمَا العَازِمُ المحْمُودُ إلاَّ الَّذِى يُرَى
مَعَ العَزْمِ فِى أحْوَالِهِ ، وَهْوَ حَازِمُ

وَقَدْ غَرَّقَ الكُفَّارَ مِنْهُ بِقَطْرَةٍ
سَحَابُ انْتِقَامٍ عِنْدَنَا مُتَرَاكِمُ

فَكَيْفَ إذَا سَالَتْ عَلَيْهِمْ سُيُولُنَا
وَجَاشَتْ لَنَا تِلْكَ البِحَارُ الخَضَارِمُ(١)

وَمَا نَحْنُ بِالإسْلاَمِ لِلشِّرْكِ هَازِمٌ
وَلَكِنَّنَا الإيمَانُ لِلْكُفْرِ هَادِمُ

فَقُولُوا لِنُورِ الدِّينِ ، لاَ فُلَّ حَدُّهُ
وَلاَ حَكَمَتْ فِيهِ اللَّيَالِى الغَوَاشِمُ(٢) :

تَجَهَّزْ إلَى أرْضِ العَدُوِّ ، وَلاَ تَهِنْ
وَتُظْهِرْ فُتُوراً أنْ مَضَتْ مِنْكَ حَارِمُ(٣)

فَمَا مِثْلُهَا تُبْدِى احْتِفَالاً بِهِ ، وَلاَ
تُعَضُّ عَلَيْهَا لِلْمُلُوكِ الأبَاهِمُ(٤)

---

(١) الخضارم : جمع خضرم ، وهو الكثير من كل شىء .

(٢) الغشم : الظلم .

(٣) حارم : مدينة .

(٤) الأباهم : جمع ابهام .

فَعِنْدَكَ مِنْ أَلْطَافِ رَبِّكَ مَا بِهِ :
عَلِمْنَا يَقِيناً أَنَّهُ لَكَ رَاحِمُ

أَعَادَكَ حَيًّا بَعْدَ أَنْ زَعَمَ الوَرَى :
بِأَنَّكَ قَدْ لاَقَيْتَ مَا اللهُ حَاتِمُ

بِوَقْتٍ أَصَابَ الأَرْضَ مَا قَدْ أَصَابَهَا
وَحَلَّتْ بِهَا تِلْكَ الدَّوَاهِي العَظَائِمُ

وَخَيَّمَ جَيْشُ الكُفْرِ فِي أَرْضِ شَيْزَرٍ
فَسِيقَتْ سَبَايَا ، واسْتُبِحِلَّتْ مَحَارِمُ

وَقَدْ كَانَ تَارِيخُ الشَّآمِ وَهُلْكُهُ
وَمَنْ يَحْتَوِيهِ أَنَّهُ لِكَ عَادِمُ

فَقُمْ ، وَاشْكُرِ اللهَ الكَرِيمَ بِنَهْضَةٍ
إِلَيْهِمْ ، فَشُكْرُ اللهِ لِلْخَلْقِ لاَزِمُ

فَنَحْنُ عَلَى مَا قَدْ عَهِدتَ : نَرُوعُهُمْ
وَنُخِيفُ جَهْداً أَنَّنَا لاَ نُسَالِمُ

وَغَارَاتُنَا لَيْسَتْ تُفَتَّرُ(١) عَنْهُمُ
وَلَيْسَ يُنَجِّي القَوْمَ مِنْهَا الهَزَائِمُ

---

(١) الفتر : الضعف ، والانقطاع .

وَأَسْطُولُنَا أَضْعَافُ مَا كَانَ سَائِراً
إِلَيْهِمْ ، فَلَا حِصْنٌ لَهُمْ مِنْهُ عَاصِمُ

وَنَرْجُو بِأَنْ نَجْتَاحَ[1] بَاقِيَهُمْ بِهِ
وَتُحْوَى الأُسَارَى مِنْهُمُ وَالغَنَائِمُ

عَلَى أَنَّنَا نِلْنَا مِنَ الْمَجْدِ مَا بِهِ
نُفَاخِرُ أَمْلَاكَ الوَرَى وَنُقَاوِمُ

وَلَكِنَّنَا نَبْغِي الْمَثُوبَةَ جَهْدَنَا
وَطَاقَتَنَا ، وَاللهُ مُعْطٍ وَحَارِمُ

وَنَخْتِمُ بِالْحُسْنَى الفَعَالَ ، وَإِنَّمَا
تُزَيِّنُ أَعْمَالَ الرِّجَالِ الخَوَاتِمُ

فأجابه أسامة بقصيدة[2] مطلعها :

لَكَ الفَضْلُ مِنْ دُونِ الوَرَى وَالْمَكَارِمِ
فَمَنْ حَاتِمٌ ، مَا نَالَ ذَا الفَخْرَ حَاتِمُ

---

(١) الجوح : الإهلاك ، والاستئصال ، كالاجتياح .

(٢) القصيدة بديوان أسامة ص ١٢٤ .

قافية النون

وكتب إلى أسامة(١) :

وَرَدَتْ إِلَيْنَا مِنْكَ مَجْدَ الدِّينِ
بَيْضَاءُ تَخْطِرُ فِي الثِّيَابِ الْجُونِ(١)

حَرَّزَتَ مِنْهَا حُرَّةً بَرَزَتْ لَنَا
حُسْناً كَنَظْمِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ

خَرْسَاءُ صَامِتَةٌ ، وَلَكِنْ أَخْبَرَتْ
مِنْهَا الْفَصَاحَةُ عَنْ لِسَانِ حَزِينِ

غَرَّاءُ ، يُلْقَى الشَّكُّ عِنْدَ قُدُومِهَا
فَتَظَلُّ تَكْشِفُهُ بِصُبْحِ يَقِينِ

تَشْكُو صَبَابَتَكَ الَّتِي آلَتْ إِلَى
دَاءٍ تَضَرَّمَ(٢) فِي الْفُؤَادِ دَفِينِ

أَبْدَتْ إِلَى الْكَرَمِ اللُّبَابِ(٣) تَمَسُّكاً
بِنَدًى كَفِيلٍ بِالنَّجَاحِ ضَمِينِ

---

(١) النص من ديوان أسامة ص ١٩٧ .
(٢) الجون : الأسود ، يريد الخط .
(٣) تضرم : اشتد حره .
(٤) اللباب : الخالص .

قَدْ عَلِمَتْ عُمْرَ الثَّنَا أَخْلاَقُهُ
فَلِذَاكَ مِنْهَا شِدَّةٌ فِي لِينِ

إِنْ مَنَّ لَمْ يُتْبِعْ صَنَائِعَ جُودِهِ
مَنًّا ، وَلَيْسَ نَدَاهُ بِالْمَمْنُونِ (١)

تَأْتِي الْقَوَافِي ، وَهْيَ أَبْكَارٌ لَهُ
قَصْداً ، فَتَخْجَلُ لِلْأَيَادِي الْعُونِ (٢)

حَتَّى إِذَا وَفَدَتْ عَلَيْنَا لَمْ نَجِدْ
بَابًا ، لَعَمْرُكَ ، مُغْلَقًا مِنْ دُونِي

وَجَوَّابُنَا هَذَا عَقِيبُ هَلاَكِ مَنْ
وَرَدَ الْمَنِيَّةَ ، رَاغِمَ الْعِرْنِينِ (٣)

أَمْسَتْ أَكَاذِيبُ الْمُنَى تَقْتَادُهُ
حَتَّى رَمَتْهُ إِلَى حَضِيضِ الْهُونِ

إِذْ ظَنَّ أَنَا مِثْلُ مَنْ عَنْ مُلْكِهِ
قَدْ رَاحَ عَنْهُ بِصَفْقَةِ الْمَغْبُونِ (٤)

---

(١) من : أنعم . والمن : الامتنان . والممنون : المقطوع .
(٢) العوان من النساء : التي كان لها زوج .
(٣) العرنين : الأنف .
(٤) المغبون : المخدوع

خَلَّى حَلاَئِلَهُ ، وَقَالَ لِنَفْسِهِ :

مَنْجَاكِ مِنْ صَرْفِ الرَّدَى يَكْفِينِي (١)

أَمَلٌ لَعَمْرُكَ زَيَّنَتْهُ لِعَيْنِهِ

خُدَعُ الغُرُورِ ، وَسَكْرَةُ المَفْتُونِ (٢)

حَتَّى إِذَا شَيْطَانُهُ قَالَ : ابْتَدِرْ (٣)

فِى سُرْعَةٍ لِلْمُلْكِ وَالتَّمْكِينِ

وَرَأَى بِأَنَّ الحَشْدَ صَائِنُ عِزِّهِ

مِنْ أَنْ يُذَالَ (٤) ، فَلَمْ يَكُنْ بِمَصُونِ

نُدِبَتْ إِلَيْهِ عِصَابَــةٌ مِنْ قَبْلِهَا

لَمْ تَسْرِ آسَادُ الشَّرَى بِعَرِينِ (٥)

مِنْ آلِ رُزَّيْكٍ الَّذِينَ بِجُودِهِمْ

وَبِبَأْسِهِمْ خَلَطُوا مُنًى بِمَنُونِ (٦)

---

(١) صرف الردى : نوائبه .

(٢) المفتون : الضال .

(٣) ابتدر : عجل .

(٤) يذال : يهان .

(٥) العرين : مأوى الأسد . والشرى : جبيل بتهامة كثير السباع .

(٦) المنون : الموت .

صَحِبَتْ مِنَ الأَصْحَابِ كُلَّ سَمَيْذَعٍ(١)
يَجْرِي إِلَى الهَيْجَا(٢) بِغَيْرِ قَرِينِ
وَإِذَا بَدَا لَيْلُ الحَوَادِثِ دَاجِياً
جَلَتْهُ غُرَّةُ وَجْهِهِ المَيْمُونِ
لَمْ يَلْبَثُوا ، حَتَّى بَدَا مُتَخَبِّطاً بِدِمَائِهِ ، كَتَخَبُّطِ المَجْنُونِ
فَنَجَا مِنَ الحَشْدِ الَّذِي قَدْ غَرَّهُ
عَدَداً لِحِصْنٍ لَمْ يَكُنْ بِحَصِينِ
وَأَتَوْا بِرَأْسٍ فَارِغٍ لَمَّا يَكُنْ
مِنْ قَبْلِ أَنْ يَعْلُو القَنَا بِرَزِينِ
أُسِرَ ابْنُهُ ، وَتَوَزَّعَتْ أَمْوَالُهُ
حَتَّى لَقَدْ بَلَغَتْ بِلاَدَ الصِّينِ
وَعَتِيبُهُ فَتَحَ الإِلَهُ بِلُطْفِهِ
بَابَ الظُّهُورِ عَلَى عُدَاةِ الدِّينِ :
مَا بَيْنَ مَقْتُولٍ ، وَرَامِي نَفْسِهِ
غَرَقاً ، وَمَجْرُوحٍ ، وَبَيْنَ طَعِينِ

---

(١) السميذع : السيد الكريم الموطأ الأكناف الشجاع .
(٢) الهيجاء : الحرب .

واسْتَهْلَكَ الأسْطُولُ مَنْ لَمْ يَلْقَهُ
بِالنَّفْسِ مِنْهُ عَلَى الظُّبَا[١] بِضَنِينِ

قُرِنَ النِّسَاءُ إِلَى الرِّجَالِ ، فَأَشْبَهُوا
خَلْطَ القَسَاوِرِ[٢] بِالظِّبَاءِ العِينِ[٣]

والعِدَّةُ العُظْمَى مِنَ العُدَدِ الَّتِي
تَضْفُو[٤] مَلاَبِسُ سَرْدِهَا المَوْضُونِ[٥]

بِصَوَارِمٍ قَدْ أَطْلَعَتْهَا لِلْوَغَى
عِنْدَ الصِّقَالِ لَهَا أَكُفُّ قُيُونِ[٦]

فَلأَخْذِهِمْ فِي كُلِّ قَلْبٍ مَوْقِعٌ
مِنْ دُونِهِ فِي القَدْرِ فَتْحُ حُصُونِ

والطَّوْدُ[٧] لاَ يُنْجِي امْرَأً مِنْ حَيْنِهِ
فَلِذَاكَ لاَ يُنْجِيهِ عُلْوُ سَفِينِ

---

(١) الظبا : جمع ظبة ، وهى حد سيف ، أو سنان ، أو نحوه .

(٢) القساور: جمع قسورة : الأسد.

(٣) العين : جمع عيناء ، وهى حسنة العينين واسعتهما .

(٤) الضفو : السبوغ ، والكثرة .

(٥) وضن الشيء : ثنى بعضه على بعض . والسرد : اسم جامع للدروع وسائر الحلق .

(٦) القين : الحداد .

(٧) الطود : الجبل .

والشُّكرُ لله الكَرِيم ، فَحَمْدُهُ
مُتَوَاصِلٌ مِنى ، لِمَا يُولِينِى

فَلَوَانَّنِى رُمْتُ السَّماءَ بِحَوْلِ رَبِّ
العَالَمِينَ لَطُلْتُهَا[١] بِيَمِينِى

فِى كلِّ أَرْضٍ لِى ثَنَاءٌ ، لَمْ يَزَلْ
يُعْتَادُ مِنْهُ نفحَةُ النِّسْرِينِ[٢]

ولعلنا أول الأمير بذا إلى
قَلْبٍ بِكلِّ مَسَرَّةٍ مَشْحُونِ[٣]

مِلْنَا لِنُعْلِمَهُ بِذَاكَ ؛ لِأنَّهُ
فِى وُدِّنَا مَازَالَ غَيْرَ ظَنِينِ[٤]

ولهُ التَّوَسُّعُ فِى المَقَالِ ، وشَأْنُهُ
فِى نَظْمِهِ والشِّعْرِ غَيْرُ شُئُونِى

وَالأَهْلُ قَدْ سَارُوا إِلَيْهِ ، وَرَأْيُنَا
طَلَبُ افتِكَاكِ فُؤَادِهِ المَرْهُونِ

لَمْ يَبْقَ ، مَجْدَ الدِّينِ ، وَجْدٌ[٥] ، فَاغْتَنِمْ
فَرَحاً أُتِيحَ لِقَلْبِكَ المَحْزُونِ

---

(١) طلتها : نلتها .
(٢) النسرين بالكسر : ورد .
(٣) هكذا بالأصل .
(٤) الظنين : المتهم
(٥) الوجد : الحزن .

وَاسْأَلْهُمُ إِنْ شِئْتَ عَنْ أَخْبَارِهِمْ
وَابُذْتُهُمْ مِنْ شَجْوِكَ[1] المَخْزُونِ

وَأَفِضْ عَلَيْنَا مِنْ فُنُونِكَ مَلْبَساً
عِنْدَ النَّشَاطِ ، فَأَنْتَ ربُّ فُنُونِ

فأجابه أسامة بقصيدة[2] مطلعها :

أجب دواعى الهوى بالأدمُعِ السجم
وبح ، فما الحبُّ فى حالٍ بمكتتم

قافية اليـاء

وكتب إلى أسامة :

يا سَيِّداً يَسْمُو بِهِمَّتِهِ إِلَى الرُّتَبِ العَلِيَّـــة
فَيَنَالُ مِنْهَا حِـــينَ يُحْرَمُ غَيْرُهُ أَوْفَى مَزِيَّةْ
أَنْتَ الصَّدِيقُ وَإِنْ بَعُدْتَ ، وَصَاحِبُ الشِّيَمِ الرَّضِيَّةْ
يَهْنِيكَ أَنَّ جُيُوشَنَا فَعَلَتْ فِعَالَ الجَاهِلِيَّةْ
سَارَتْ إِلَى الأَعْدَاءِ مِنْ أَبْطَالِهَا مِائَتَا سَرِيَّةْ
فَتُغِيرُ هَذِى بُكْرَةً وتُعَاوِدُ الأُخْرَى عَشِيَّةْ
فَالوَيْلُ مِنْهَا لِلفَرَنْجِ ، فَقَدْ لَقُوا جَهْدَ البَلِيَّةْ

---

(١) الشجو : الحزن .

(٢) القصيدة بديوان أسامة ص ٤٤ .

جَاءَتْ رُءُوسُهُمُ تَلُو حُ عَلَى رُءُوسِ السَّمْهَرِيَّةْ[١]

وَبَدَائِـعٌ[٢] قَدْ قُسِّمَتْ بَيْنَ الجُنُودِ عَلَى السَّوِيَّةْ

وَخَلاَئِقٌ كَثُرَتْ مِنْ الأَسْرَى تُقَادَ إِلَى المَنِيَّةْ

فَانْهَضْ ، فَقَدْ أُنْبِيتَ ، مَجْدَ الدِّينِ ، بِالحَالِ الجَلِيَّةْ

أَلِمْ بِنُورِ الدِّينِ وَاعْلِمهُ بِهَاتِيكَ القَضِيَّـــةْ

فَهْوَ الَّذِى مَازَالَ يَخْلُصُ مِنْهُ أَفْعَالٌ وَنِيَّةْ

وَيُبِيدُ جَمْعَ الـكُفرِ بِالبِيضِ الرِّقَاقِ المَشْرَفِيَّةْ[٣]

فَعَسَاهُ يَنْهَضُ نَهْضَةً يُفْنِي بِهَا تِلْكَ البَقِيَّةْ

إِمَّا لِنُصْرَةِ دِينِهِ أَوْ مُلْكِهِ ، أَوْ لِلحَمِيَّةْ[٤]

---

(١) السمهرى : الرمح الصلب .
(٢) فى الأصل : قلائع ، ولعل ما اخترناه هو الصواب .
(٣) المشرفية : السيوف .
(٤) الحمية : الأنفة .

فهرس القوافى

الفهرس

ملحوظة

تقرأ كلة (رُزَّيْك) بضم الرّاء، وتشديد الزّاى مفتوحة، وسكون الياء .

